رَانيا حَمديّ

قصص

الطبعة الثانية

أُنثَى مَعَ وقف التّنفيذ

أنثى مع وقف التّنفيذ

قصص

أنثى مع وقف التّنفيذ

بقلم . رانيـــــا حمـــدي
تقديم د. مدحت عيسى

حمدي ، رانيا .

أنثى مع وقف التنفيذ : قصص/ رانيا حمدي . – ط ٢– الإسكندرية.
نوفمبر ٢٠١٢

١٣٥ صفحة ؛ ٢١ سم

رقم الإيداع: ٢٠١١/١٣٩٦٩

ISBN : 978-977-6337-59-6

تقديم دكتور: مدحت عيسى

تصميم الغلاف الفنان: كريم آدم

إخراج فني: أحمد علي حسن

الطباعة: Reda Press

العنوان: ١١٦ شارع السيد محمد كريم – المنشية – الإسكندرية

التليفون: ٠٣/٤٨٠٣٩٣٥ – فاكس: ٠٣/٤٨٠١٦٧٨

الطبعة الأولى: أغسطس ٢٠١١

الطبعة الثانية: نوفمبر ٢٠١٢

إهـــداء

إلى من علَّمني كيف أكون وربَّاني على المباديء منذ الصغر..
إلى من كان ومازال نعم المثال الأعلى ..
إلى من أصبو لتحقيق النجاح حتى أرى بعينيه نظرة فخر ..
مازلت لا تعلم كم أحبك ومازلت أجتهد ..

إهداء إلى أبـــي

إلى من آزرتني ودعَّمتني وآمنت بي ولم تتخل عني قط ..
إلى سيدة النساء جميعاً وأعظم وأجمل نساء الدنيا بعيني ..
إلى من بثتني الحنان والدفء منذ الصغر ..
كلمات الدنيا جميعاً لا تفيكِ حقك حبيبتي وصديقتي ..

إهداء إلى أمـــي

ابنتكم
رانيا حمدي

صرخة البوح
بقلم الدكتور: مدحت عيسى

"دومًا كنتُ أنثى الفصول الأربعة.. في طياتي تجد الشيء والنقيض. أنثى الحد الأقصى في كل السمات.. في تلك المجموعة كنتُ محض حبر وورق.. محض أدب وانسكاب.." (المؤلفة)

هي ترفض دومًا النمط الجاهز والقالب التقليدي، وترغب في أن يكون تشكيلها تلقائيًّا وطبيعيًّا دون تدخل، ساديةُ القلم تجاه أي محاولة للإنقاص من قدرها.. كانت هذه هي صفات الأنثى المتفردة التي أكدت المؤلفةُ بَصْمَتَها الأنثوية الفطرية.

وعلى صغر سن المؤلفة، فقد تمثلت كل مراحل الأنثى وكل حالاتها، في ضعفها وقوتها، في عنفوانها ويأسها، في حبها وكراهيتها.. هي الأنثى الكاملة: الأم، والأخت، والزوجة، والحبيبة، والرفيقة. وهي أيضًا أنثى المدينة والرَّبع. وكثيرًا ما كانت تعرض المؤلفة لأنثاها متفردةً وحيدةً تناجي نفسها. وقد امتلأت المجموعة القصصية بصرخات أنثوية خالصة ترنو إلى الخروج من شرنقة الجمود والتخلف، ولنقرأ قول المؤلفة على سبيل المثال:

"أنثى هي مع وقف التنفيذ.. فأنوثتها قيد الحصار ما بين ذكورة غبية ومتاريس الحياة". (خواطر أنثى)

"ولكن هيهات هيهات، لم تخلق أنثاي لتثنيها عن أحلامها الحياة.. فهي توقن أن التجارب خلقت لتصقل العظميات من الفتيات". (حالة)

"أعتقد أننا سنستمر.. كبرياءً سنستمر". (عبق الكبرياء)

"فقهقتُ ضاحكةً، فأنا امرأة ما عادت تعرف السؤال ولا العويل". (سادية قلم)

ومع كل هذه الصرخات الأنثوية التي تطلقها المؤلفة على لسان شخوصها القصصية، إلا أن الأنثى الفطرية تطفر على السطح من وقتٍ إلى آخر، تلك الأنثى الناعمة المحبة التي تذوب عشقًا بين يدي رجل معطاء، وهي الأنثى نفسها التي قد تخطئ أحيانًا بسبب اختياراتها فتُعاني وتتألم.

ولقد سيطر الحلم بكل عناصره على فكر المؤلفة في قصص كثيرة، ولا يمكن فصل الحلم عن طبيعة المرأة، فالحلم جزء من تكوينها فكثيرًا ما نجد المرأة أكثر استشرافًا للمستقبل، وأكثر رغبةً في كسر حاجز المعتاد. تقول رانيا حمدي:

"على الشاطئ الصخري المجاور للقلعة بمنطقة بحري.. جلستْ أمام البحر مباشرة.. تستمع لهمس البحر وحكايات الهواء الحر الطليق.. كانت طيور النورس تحلق فوقها تزين سماء لوحتها بذاك الفضاء الفسيح.. متأملة المدى البعيد، تتردد على مسامعها أغنية فيروز "كيفك إنت" تحملها الكلمات إلى أول دقة قلب.. أول

رجفة جسد.. أول لمسة يد، حملتها إلى نفس المكان منذ زمن بعيد".
(حلم يداعب عتم الليل)

وقد أخذت المؤلفة قارئها معها في رحلة خيالية من رحلات ألف ليلة وليلة، ونجحت من خلال حكاية عبر ثلاث ليالٍ، في أن تداعب الحلم الكامن في نفوس الرجال والنساء، مستدعيةً نمطًا شرقيًّا أصيلاً وهو نمط الحكي.

أما الرمزية فقد اتضحت في هذه المجموعة في (أقصوصات عشقية)، إذ نرى المؤلفة تبتعد عن السرد المعتاد في بقية القصص لتبهرنا برسم أجواء خيالية باستخدام لغةٍ رمزية. ولنقرأ قول المؤلفة مثلاً: "عمَّت الظلمة إلا من بؤرةٍ تشعلني.. أغمضت عيني لوهلةٍ.. تعالت أصوات الكمان.. تصفيق حاد.. أسدلت الأستار.. أرداني الخذلان..".
(رفع الستار)

"ها هي تخرج مني.. تنفضني عني.. كانت تُبْعَث من داخلي آلام تشبه المخاض.. بصيص من الضوء يتسرب إلى المكان.. تنساق إلى الضوء ككائن نوراني انبعث من شراسة الموت". (حل النسيان)

أما فيما يتعلق بالتقنيات الأسلوبية، فقد لوحظ استخدام المؤلفة تقنية السؤال في كثير من القصص، وهو ما يؤكد الحيرة السيكولوجية التي تعيشها المرأة عامةً، والعربية خاصةً. تقول:

"إلى متى؟.. أيامي سرقتني ونسيت أم تناسيت أن أحياها؟!
متى بدأت وأين وصلت؟..

متى ستكون لحكايتي نهايتها؟!". (شتاء طويل)

"أتسخط على ما مرت به.. على الآلام والجراح التي فرت مهجتها؟!

أم تحمد الله عليه، فلولا الآلام والجراح ما كان شخصها وما كانت روعتها؟!

أم ترضي وتحمد فهي لن تعيش مغيبة كمثيلاتها؟!

هل ما تعلمته استحق ما دفعته ثمنًا من آلام وجراح للحياة؟!". (شتاء طويل)

وإذا ما انتقلنا إلى لغة الكتابة نجد كثرة استخدام المؤلِّفة للفعل المضارع في بعض القصص لاستحضار الصورة وتجسيدها أمام القارئ، وكأن الأحداث التي تصفها مشاهد سينمائية متحركة. ولنقرأ قول المؤلفة مثلاً:

"بعد يوم عمل طويل يحتاج جسدها المرهق إلى حمام ساخن يريحها وينعشها.. تخلع عنها ثيابها.. وتدخل تحت المياه.. تغمرها القطرات الساخنة من رأسها وحتى أخمص قدميها، تراها متجهة بوجهها لأعلى.. نحو قطرات المياه المتساقطة.. تلتمس لحظة استجمام بين سرعة القطرات.. قوتها وحرارتها..

تلبس قميصها الزهري الرقيق.. تجلب ما تبقى من أعمالها لتنهيه وهي تتناول قدرًا من الطعام مع القهوة فقد كانت لها أعز رفيق.

وهكذا يكون يوم عملها قد انتهى ومع دقات منتصف الليل تبدأ الأنثى المكبوحة بداخلها تفيق..". (شتاء طويل)

كما يكثر استخدامُ المؤلفةِ الجملَ بدون حروف عطف فتتحول الجمل النثرية إلى مجموعة دفقات شعورية متتالية تحبس معها أنفاس القراء، وهذا أثر من آثار شعرية الكاتبة. ومن ذلك قولها:

"وتنسى احتياجاتها خلال تلك الساعات.. تنهي عملها.. تحمل حقيبتها.. تنزل متهادية على درجات السلم متجهة إلى سيارتها.. تركب السيارة.. تريح ظهرها على مقعدها.. تغمض عينيها لأقل من دقيقة وكأنها تحاول استعادة حياة في زخم العمل قد فقدتها.. تتنهد تنهيدة حزينة.. تدير مفاتيح السيارة وتنطلق قاصدة بيتها يعتريها التعب.. منهكة تنظر حولها.. تحاول أن تخطف لحظات مشمسة ترى عينيها من خلالها الحياة". (شتاء طويل)

ومن أكثر ما يلاحظ على المجموعة القصصية أنها حُبلى بالرسائل المباشرة المراد توصيلها إلى القارئ، وإن عابها صدورها على لسان الراوي وليس على لسان إحدى شخصيات القصة؛ إذ إن صدورها من غير الراوي يجعل الرسالة أقل مباشرةً وأكثر فنيةً.

وقد نجحت المؤلفة في أن تقيم نوعًا من الحوارية بين الماضي والحاضر، فالمؤلِّفة من هؤلاء الكُتَّاب الذين يكسرون أزمان السرد فينتقلون بينها لأغراض سردية ودلالية. أما المكان، فتتعدد اختيارات المؤلِّفة له، فقد يكون مكان العمل أو منزلاً أو طريقًا أو شاطئًا... الخ.

وفي هذه المجموعة القصصية يمثل العنوان عنصرًا مهمًّا من عناصر تشكيل الدلالة في القصة، وقد نوَّعت الكاتبة في استخدام العناوين، من حيث وظيفتها في القصة، فثمة عناوين تشير إلى مضمون القصة، أو تُسْتَنبط من مغزاها، وقد تكون للعناوين طبيعة إيحائية.

وبعدُ، فإن المؤلِّفة وإن كان يعوزها الغوص في عالم القصة القصيرة العميق، فإنها قدمت لنا – على صغر سنِّها – أنموذجًا قصصيًّا متميزًا فيما يتعلق بالرسالة الأدبية الكامنة وراء هذه المجموعة القصصية، ونجحت في إيجاد جسرٍ للتواصل بينها وبين المتلقي بما أحدثته من جدلٍ وردود أفعالٍ تجاه الأحداث والشخوص.

(١)
أنثى مع وقف التنفيذ

الفصل الأول

خواطـر أنثـى

استيقظت كعادتها نشطة مستعدة ليوم عمل حافل جديد .. يوم يتكرر كل يوم مع اختلاف جدول أعمالها ، ففي كل يوم هناك في عملها تجديد .. بخلاف العمل لم يكن بحياتها شيء يذكر ..

بدأت يومها بالوضوء استعداداً لآذان الفجر .. أخذت تتوضأ وتتمتم بذكر الله ورسوله .. كانت تغسل وجهها بالماء وكأنها تتطهر مما لحق بها من عذابات الحياة، رمقت نفسها في المرآة رمقة خاطفة جعلتها تعيد النظر مرة أخرى ولكن هذه المرة نظرت لنفسها نظرة مطولة .. أخذت تتفحص نفسها .. تنظر وتدقق والتساؤلات تعتصر قلبها

من أصبحت ؟..

وإلى أين ذهبت بي الحياة ؟..

كيف تغيرت ملامحي هكذا ؟.. وكم مر علي هكذا من سنوات ؟..

وكما نقول مر أمام عينيها شريط حياتها مروراً خاطفاً سريعاً .. استفاقت منه على صوت أذان الفجر وقد تنبهت أنه هناك صلاة تنتظرها وملاقاة صباحية لوجه الله ..

تبدأ يومها بأهم اجتماع عمل قط .. اجتماع عمل من نوع خاص .. اجتماع مع وجه الله عز وجل .. ولحظات يهدأ بها قلبها من هموم الحياة ..

في خشوع شديد أقامت صلاتها بين يدي الله .. ارتسمت على ملامحها الملائكية بسمة رضا تعينها على مصاعب الحياة.. انتهت من صلاتها وها هو قد جاء موعد قهوتها الصباحية..

عاشقة مجنونة للقهوة هي .. تسلب لبَّها رائحة الحبهان الذائب بقهوتها ..

جلست ترشفها باستمتاع شديد على ذلك الكرسي القابع بجوار شرفتها.. تستمع لأغنيات فيروز وتدندن معها بصوتها الحالم الحزين.. تنتظر شروق الشمس بعيني طفل بريء ينتظر الفجر منذ زمن بعيد.

تنهي قهوتها .. تخلع عنها حلتها لتلبس حلة الواقع وتعود مرة أخرى لتسابق الحياة..

تقف أمام المرآة تضع على وجهها اللمسات الجمالية الأخيرة .. تنظر بثقة لنفسها .. تمسك حقيبتها وتخرج من منزلها وعلى وجهها نظرة تتحدى بها مصاعب الحياة..

أنثى هي مع وقف التنفيذ .. فأنوثتها قيد الحصار مابين ذكورة غبية ومتاريس الحياة..

تكافح من أجل عملها .. ولأنه أصبح الشيء الوحيد الذي يعينها على وحدتها .. الشيء الوحيد الذي يكسر ولو لبعض الوقت وطأة رغبتها .. فقد ابتلع عملها واقعها.. أصبحت الأمنيات والأحلام رفاهية غير متاحة لمثيلاتها في الحياة.

فقدت حقها في أن تعيش كامرأة .. فقدت حقها في أن تحب وأن تصبح زوجة لرجل يغير بعينيها مفهومها عن الحياة .. فقدت حقها في لمسة طفل يمسك بأناملها .. يتهجأ اسمها .. يحتضنها بين ذراعيه الصغيرين ويناديها أماه..

كانت نظرات الناس تقتلها .. فلم يكفيهم الكلام بل وجهوا لها أصابع اللوم والاتهام..

لأنك تعملين لم تتزوجي...

لأنك تفكرين لم تحبي..

لو أنك قبلتي بأي رجل جاءك ما كنت الآن بلا حياة..

أخذوا يعيبون عليها حتى رغبتها في قبول أو رضا وحين نطقت بكلمة التفاهم .. نظروا إليها وكأنها ارتكبت خطيئة .. أنكروا عليها أبسط حقوقها في زيجة لمدى الحياة.. حاكموها وأصدروا الأحكام بأنها صاحبة الذنب .. فأعلنت على مجتمعها العصيان..

"نعم أنا امرأة ولكني لست اليوم بمدان .. ولتعلموا أني أنثى رغم أنف الأزمان" ..

***

الفصـــل الثـــانـــي
شتاء طويل

هي خليط ساحر ويتجلى هذا في عملها .. فهي محط إعجاب الجميع .. منهم من يرى بها أنوثتها ومنهم من تسحره ببسمتها وآخرون يحبون أسلوبها وطابعها وجرأتها .. وإن اختلفوا جميعاً على ما يجذبهم إليها ولكنهم لن يختلفوا على أنها متميزة بين مثيلاتها.

مر يوم العمل بين اجتماعات ومقابلات ، أوراق وضغوط وكثير من المكالمات ، حتى أنها تنسى نفسها وتنسى احتياجاتها خلال تلك الساعات .. تنهي عملها .. تحمل حقيبتها .. تنزل متهادية على درجات السلم متجهة إلى سيارتها .. تركب السيارة .. تريح ظهرها على مقعدها .. تغمض عينيها لأقل من دقيقة وكأنها تحاول استعادة حياة في زخم العمل قد فقدتها..

تتنهد تنهيدة حزينة .. تدير مفاتيح السيارة وتنطلق قاصدة بيتها يعتريها التعب .. منهكة تنظر حولها .. تحاول أن تخطف لحظات مشمسة ترى عينيها من خلالها الحياة..

تصل إلى وجهتها .. تركن السيارة .. تحمل الحقيبة متجهة إلى باب منزلها .. تلقي التحية بحنو وتواضع على زوجة الحارس ..
تدلل بناته تخرج لهن الحلوى من حقيبتها .. دوماً كانت حريصة على أن تشتري الحلوى رفقاً بكل طفل يقابلها في أي وجهة تقصدها..

تلقي التحية وتستأذن قاصدة باب شقتها .. تفتح الباب وتلقي السلام والرحمة على مخلوقات الله التي لا نراها ولا نسمعها .. تفرغ

حقيبتها .. تصنف ما ينتظرها من أعمال .. تتجه للحظة مهمة تحلم بها وتنتظرها..

بعد يوم عمل طويل يحتاج جسدها المرهق إلى حمام ساخن يريحها وينعشها .. تخلع عنها ثيابها .. وتدخل تحت المياه .. تغمرها القطرات الساخنة من رأسها وحتى أخمص قدميها، تراها متجهة بوجهها لأعلى نحو قطرات المياه المتساقطة .. تلتمس لحظة استجمام بين سرعة القطرات .. قوتها وحرارتها..

تلبس قميصها الزهري الرقيق .. تجلب ما تبقى من أعمالها لتنهيه وهي تتناول قدر من الطعام مع القهوة فقد كانت لها أعز رفيق . وهكذا يكون يوم عملها قد انتهى ومع دقات منتصف الليل تبدأ الأنثى المكبوحة بداخلها تفيق..

وفي الساعات الأولى من يوم جديد تقف تلك الأميرة العذبة الملامح في شرفتها صامتة تتأمل الفضاء البعيد .. يعلو وجهها خليط من المشاعر في ماهيته غريب.. فلا يسعك أن تعلم هل هي حزينة أم سعيدة ؟! هل تبكي أم تضحك؟! هل تكترث أم احتلها شعور اللامبالاة الرهيب؟..!

تقف في ردائها الزهري سادلة شعرها البني على كتفيها ينبعث من عينيها العسليتين شيء غريب.. شيء مجهول يجعلك تنجذب إليها.. ونسمات الليل الساهر تداعب خصلات شعرها ، تتهافت ..

تتسابق حائرة أيهما تلمس شفتاها أم وجنتاها.. تقف ناظرة للكون الساكن .. للشارع الهادئ وبداخلها مشاعر ملآها تعتصرها ..تستعيد ذكريات حياتها .. تتساءل وتتساءل ولا تصل كالعادة لإجابة ترضي سريرتها..

تحدث نفسها بأحداث مضت ومواقف وأناس فيهم من أرْدَتْهُم وفيهم من أرْداها .. مواقف صنعتها ومواقف كادت تهدم بنيانها .. ظلت تفكر وتفكر حتى توقفت أمام سؤال ظل يتردد على ذهنها .. يشغل بالها .. يحيرها بتعدد أشكاله وأساليبه وظهوره بعينيها..

إلى متى؟.. أيامي سرقتني ونسيت أم تناسيت أن أحياها ؟!

متى بدأت وأين وصلت ؟..

متى ستكون لحكايتي نهايتها ؟!

وفجأة ساد الصمت والتركيز بذهنها الحائر.. ولاحت أمام عينيها نقطة البداية أم أقول البدايات ؟!!

وجدت أن حياتها تحتوي على عدة بدايات .. بدايات لا يمكن إغفال أو إهمال إحداها فكلها ساهمت في وجود تلك الحياة .. ساهمت في وجود أناس وفراق أناس وآخرون مازال موقفهم مجهول من دنياها..

أتسخط على ما مرت به .. على الآلام والجراح التي فرت مهجتها؟!

أم تحمد الله عليه ، فلولا الآلام والجراح فما كان شخصها وما كانت روعتها ؟!

هل تسخط على لحظة علمت بها مكنون الحياة وماهيتها ؟!

أم ترضى وتحمد فهي لن تعيش مغيبة كمثيلاتها ؟!

هل ما تعلمته استحق ما دفعته ثمن من آلام وجراح للحياة ؟!

تصمت قليلاً وكأنها تكبح تساؤلاتها .. تشد عليها الأغلال .. تقيدها داخلها .. تتنهد تنهيدة طويلة .. تنظر عيناها للسماء .. تقطر من عينيها دمعة حزينة وتهمس شفتاها الحمد لله .. الحمد لله..

آخر ما تستقر صورته بعينيها هو وجه القمر وضوءه الفضي على صفحات ليلها القاسي الطويل..

تلملم أشلاءها وقد تهالك عقلها من الأسئلة .. تدخل لتستقر في سريرها تتمتم بأذكارها .. تغمض جفنيها .. تلتمس راحة إن لم تكن للقلب أو للعقل فلجسدها..

"تمر على حياة الأنثى فصول السنة الأربع وكان هذا الفصل شتاء أنثاي الطويل"..

***

الفصـــل الثـــالـــث

حلم يداعب عتم الليل

على الشاطئ الصخري المجاور للقلعة بمنطقة بحري .. جلسَت أمام البحر مباشرة .. تستمع لهمس البحر وحكايات الهواء الحر الطليق .. كانت طيور النورس تحلق فوقها تزين سماء لوحتها بذاك الفضاء الفسيح.. متأملةً المدى البعيد، تتردد على مسامعها أغنية فيروز "كيفك أنت" تحملها الكلمات إلى أول دقة قلب .. أول رجفة جسد .. أول لمسة يد، حملتها إلى نفس المكان منذ زمن بعيد ..

كانت تجلس نفس الجلسة وبجوارها حبيبها الوحيد.. رجلها الأول والأخير.. تذكرت تسارع دقات قلبها .. ارتعاشة أنفاسها مع أول لمسة يد من يد الحبيب.. تذكرت التقاء نظراتهما وذاك الشوق الرهيب .. كلماته الرقيقة وزهرة حمراء يداعب بها ملامحها بفيض من الحنان لأعتى القلوب يذيب..

مع هذا الفيض الحاني .. مع الذكريات أغمضت جفنيها للحظة مبحرة مع حبيبها إلى سماء خيالي بعيد ..أمسك يدها .. جذبها برقةٍ إلى صدره .. أراح رأسها على كتفه .. احتواها داخله وبحنو شديد راقصها.. رقصا .. تداعبا .. ضحكا .. وتضاربا ، تبادلا نظرات تملأها أشواق دفينة من زمن بعيد .. سمعت صوته يردد على مسامعها أحلى كلمة .. كلمة هجرتها منذ أمد بعيد .. سمعته يهمس بأذنيها "أحبك" .. وشعرت بشفتيه تلمس في رقة وحرارة وجنتها .. شعرت قشعريرة

تهاجمها .. تزلزل حصونها .. تمتلكها .. شعرت بذراعيه تجتذباها بقوة إلى صدره ..

وفجأة انتبهت على صوت بائع الشاي والقهوة يسألها بماذا يستطيع أن يخدمها .. فتبسمت وطلبت فنجان من القهوة اعتادت عليه في وحدتها يؤنسها ..

تنهدت تنهيدة قوية .. تنهيدة عاشقة أذابتها الذكريات .. ونظرت للبحر بعينيها مبتسمة وكأنها تسأله يا ترى كيف هي الذكريات مع حبيبي ؟..

صمتت في سكينة والابتسامة تعلو وجهها .. تأملت صفحة البحر الصافية وأمواجه الهادئة .. شعرت بها تنبض وكأنها تخبرها بأنه مازالت هناك فرص للحياة .

وتأكيداً على روح المرح للكون المحيط والتي أصر أحد طيور النورس أن يثبتها بحرارة ففعل فعلته على قميصها والتف هارباً في الفضاء البعيد .. مما أثار ضحكها فقهقهت وكأنها قامت من ثبات عميق..

شربت قهوتها .. وهمت قاصدةً منزلها .. ركبت سيارتها .. مدت يدها لتشغل الراديو فإذا بصوت فيروز يشدو بآخر مقطع من أغنيتها "ترجع ع راسي رغم العيال والناس .. أنت الأساسي وبحبك في الأساس .. بحبك أنت" ارتسمت على شفتيها بسمة تملأها السعادة ..

أدارت مفاتيح سيارتها .. راضية عن يومها تملأ السعادة قلبها متجهة إلى منزلها ..انطلقت بالسيارة .. داهمتها زحمة المواصلات والسير فقد كانت هذه ليلة الجمعة .. توقفت بإحدى الإشارات ..

لم تبال بكل هذا الملل ولا بتلك الزحمة الخانقة..

وفجأة جذب مسامعها صوت لم تحلم حتى صدفة أن تقابله .. نظرت إلى مصدر الصوت .. السيارة المجاورة لسيارتها لتجد أميرها رب أسرة تجلس بجانبه زوجته ويحيطه أطفاله وصوته يعلو غاضباً ثائراً على زحمة المرور أو على زخم الحياة..

تحملق فيه وهي مذهولة مما رأت ومن صدفة انتظرتها مطولاً وتمنتها على مدار الليلات، من حلم ظل يداعب عتم ليلها في تلك الحياة ..

فتحت الإشارة وانطلق هو بسيارته مختفياً بين جموع السيارات ..ما كان منها إلا أن ركنت جانباً محاولةً استرجاع ما خار من قواها .. سكنت للحظات .. تيقنت أنها اليوم تعلمت درساً جديداً ..

تعلمت "أن الحياة لا تقف عند شخص مهما كانت أهمية ما لعبه من دور في حياتنا وأن العمر لا ينتهي إلا بالممات"..

***

الفصـــل الرابـــع

أمس انتهينا

حبيبي.. أحببتك كثيراً .. وتنازلت لأجلك ولأجل رغباتك ورضاك كثيراً .. ولكنك لحبي ما قدّرت.. توسمت بك الخير فلم أجده .. ولكنني لم أفقد يوماً الأمل في أن يستنفر حبي من داخلك الخير.. كنت تقتلني مع كل لحظة .. إما بتجاهل أو بخيانة وكنت أحملك بصدري زهرة تلتمس الحياة .. تنتظر قطرة ندى ما جاءت قط.. أعلم أنك لا تلقي لي بالاً وأنك قد لا تتذكرني ، وكثيراً ما تساءلت ماذا كنت بحياتك ؟! وهل يوماً ولو عرضاً على أفكارك وردت؟..! كل ما أعلمه هو أني ما تمنيت سواك وأنك بكل أنثى سواي افتتنت، وختام كلماتي: "أنّك من عمري أكثر من وقتك أخذت"

كان هذا نص خطاب كتبته أنثاي لحبيبها بعد أن عادت إلى منزلها بعد يوم حالم ومضني في نفس الوقت.. أنهت خطابها .. وضعته في ظرف وردي معطر بشذا عطرها .. قبَّلت الظرف بشفتيها قبلة وداع حانية .. انطبع أثر أحمر شفتيها على الظرف مؤكداً قبلة وداعها.. تركت الظرف على مكتبها .. قامت لتغتسل وكأنها تود أن تزيل آثار الماضي عنها .. تود أن تتخلص من أحمالها .. أنهت حمامها الساخن .. جلست قرب شرفتها ممسكةً بيدها فنجان قهوة لطالما في أشجانها رافقها .. تتأمل السماء وتلألؤ نجماتها .. تستمع إلى صوت كاظم الساهر يشدو بكلمات ساحرته:

الليلة إحساسي غريب .. عاشق وأنا مـالي حبيب

حبيت كل الناس لامونـي .. حبيت كل أحبابي فاتوني

قولت أحب الحب أحسن .. قولت أحب الحب أضمن

لا أحن ولا أذوب ولا بعد اليوم أحزن

يا له من صوت ويالها من كلمات ساحرة .. تَطْرَب للكلمات .. تشعر بأنها أخيراً تحررت من أهم وأقوى قيود ماضيها وأنها في تلك اللحظة عاشقة للحياة .. عاشقة لنفسها .. حتى أنها قد تكون بالفعل عاشقة ولكن بلا عاشق يشاركها كونها..

جلست مُمَدِدَةً قدميها على كرسي مقابل لها .. تضع يديها خلف رأسها متكأة بظهرها على ظهر مقعدها .. تتلاعب النسمات بخصلات شعرها .. ينعكس على وجهها ضوء القمر الساحر ..

جلست كلوحة زيتية آية في الجمال وكأنها تتحدى الكون بروعة أنوثتها.. أنهت قهوتها وشرعت بوضع اللمسات الأخيرة على تلك اللوحة الفائقة الجمال بنظرة للكون الساكن بهدوء ورضا وصبر جميل يتجلى بعينيها.. أغلقت شرفتها .. دخلت غرفتها .. استقرت على سريرها .. تلت أذكارها .. أغمضت عينيها .. ارتسمت على ملامحها ابتسامة تحير العقول في ماهيتها.. قضت ليلة هادئة .. وراحت في ثبات عميق لأول مرة منذ زمن بعيد ..

استيقظت باكراً لصلاة الفجر كعادتها .. مستقبلةً يوم جديد بطهرها وبراءتها .. ارتدت أحلى ما عندها .. تزينت كما لم تتزين في حياتها.. كانت كالبدر تشع جمالاً وأنوثة .. تتألق الحياة في نظراتها ..أخذت الخطاب الملقى على سطح مكتبها .. نزلت مسرعة من منزلها متجهة لمؤنس حياتها الأوحد "عملها.."

في طريقها للعمل توقفت للحظات عند شاطئ البحر .. ألقت الخطاب توقفت لثوانٍ تراقب الأمواج تتخطفه .. تتقاذفه حتى اختفى كلياً ومعه حكاية انتهت في عرض البحر ..

خلال تلك اللحظات مرت بعينيها أحداث قصتها كاملة أمام عينيها وكان آخر مشهد منها يحمل صورة لحبيبها يترك يديها.. تبسمت برضا .. إلْتَفّت عائدة إلى سيارتها .. أدارت مفتاحها .. "أخ فعلتها زوبة !! ".. يا إلهي لماذا تصر زوبة أن تثبت صلابة رأس في أوقات حرجة ومهمة فقط عندما أحتاجها.. يالها من سيارة عنيدة صلبة الرأس كصاحبتها .. ترجلت من السيارة ونظرت لها نظرة اختلط فيها الغيظ بالضحك.. ضحكت ضحكة ساخرة مجلجلة .. ضحكة لم تعرف منذ زمن طريقها لهذا القلب.. سخرت من الموقف ونظرت لسيارتها وقالت: "كده برده يا زوبة .. ماشي يا ستي .. كده برده هنت عليكي .. عموماً أنا كمان هسيبك وأروح شغلي واستنيني بقا يا هانم لما ارجع أخدك" ..

وقفت تحاول أن توقف تاكسي .. إلا أن كل التاكسيات أبت أن تقف وكأنهم تآمروا مع تلك العنيدة زوبة..

وفجأة توقفت سيارة .. انبعث من داخلها صوت ذكوري أجش رزين يقول لها "اركبي يا آنسة" .. نظرت لترى من تجرأ ووجه لها تلك الدعوة بالصعود لسيارته .. يووووه كمال !! .. مهندس كمال زميلها بالعمل .. شكرته وأبت بحجة أنها ستوقف تاكسي وكأنه أمر سهل .. فأصر بشدة وبما أن الوقت كان قد أزف وكانت على شفا حفرة من التأخر عن العمل فقد قبلت دعوته ولكن على مضد .. وأخذت تختلط بداخلها مشاعر الامتنان والسخط مغلفة بالخجل .. ولكنها مضطرة لا محالة وكل ذلك بسبب زوبة هانم وأفعالها.. والحقيقة أن ما كان يحيك بصدرها تجاه كمال كان شعور متبادل أي كما يقول المثل: "من القلب للقلب رسول" رغم أن كلاهما لم تجمعه بالآخر صدفة أو حتى محادثة عابرة من قبل..

جلس كل منهما يحاول دفع نفسه لتنطق بكلمة شكر أو ترحيب أو موضوع عمل يغير الأجواء ويكسر جدار الصمت الرهيب .. حتى تشجع كمال مبادراً بالقول: "منذ فترة لم أرك في الشركة حتى أني اعتقدت أنك لا تأتين أو أنك لشركة أخرى انتقلت" .. فأجابته بحدة واعتراض : "نعم!!" ، فارتبك كمال وساد مرة أخرى الصمت ، أحسّت أن ردة فعلها جاءت حادة مبالغ فيها وأنه فقط حاول أن يتكلم ليكسر

البرود والخجل في ملامح وجهها .. فابتسمت ابتسامة حلوة عزبة وكانت قد تذكرت أنها سمعت بالأمس زميل كمال في العمل يبلغ الإدارة بأن كمال إجازة عن ذاك اليوم .. فأسعفها ذكاءها .. وقالت له : "نعم قد أكون أنا من لا تأتي ولكن لتذكرني هكذا أين كنت أنت بالأمس؟؟" ..فابتسم ابتسامة خجل ونظر أمامه .. ساد الصمت مرة أخرى .. أخذت نفس كل منهما تراوده أن ينطق وفي نفس الوقت اتخذ كلاهما القرار متكلماً .. التقت عيناهما .. تخاطبا معاً بالعين مخلفين جواً غريباً وكأن الزمن توقف للحيظات ولا يوجد بالكون سواهما .. لم يفيقا إلا على إنذار سيارة تستعجل مسيرهما .. فنظرا في خجلٍ شديدٍ لبعضهما .. ثم انفجرا من الضحك تاركين ما كان بالأمس للأمس .. مقبلين على يوم جديد .. موقنين "أنه دائماً وأبداً سيظل هناك أمس يسبق اليوم وغد جديد يحيل اليوم للأمس"

* * *

الفصل الخامس

إعتقــال حلم

طوال ثلاثة أسابيع وكل ما يجمعنا هو نظرات خفية وابتسامات سرية ، ثلاثة أسابيع شعرت فيهن أني عدت مراهقة تعتريني مشاعر المراهَقَة العتية ، أخذت أنتظر خطوته الأولى وأتساءل هل ما أحياه حلم أم حقيقة ؟! هل انتهت أيام الوحدة وأصْبَحَتْ منسية؟!

كم هو جميل أن تستشعر لذة الحب بعد سنين الوحدة القوية .. سعادة لا توصف تعتريني ..تغطي ملامحي .. تكاد تفضحني عيناي. صباح جديد يبدأ بإطلالة فيروزية .. ورائحة الحبهان تفوح من قهوتي الصباحية .. أخرجت حلتي الزهرية من الخزانة .. شعرت داخلها أني زهرة عادت نَدِيَّة .. وضعت اللمسات الأخيرة من عطر ساحر وأحمر شفاه متلأليء .. تجملت وتألقت حتى أني من زهوي شعرت أني نجمة هوليودية ..

اليوم لن أركب المصعد هبوطاً فقد قررت أن أتهادى على درجات سلمي وكأني أميرة عربية ، ومع أول إطلالة لي خارج باب البناية تقابلني النسمات بحفاوة للحياة مغرية.

انطلقت بسيارتي متجهة إلى مقر عملي .. ركنت السيارة وتهاديت حتى باب المصعد وقفت انتظر نزوله وقد أخجلتني نظرات من حولي من الزملاء وهمسهم ولا أخفي عليكم لكم أسعدني ذلك فمنذ زمن طويل هجرت تلك الحياة .

ما أن وصل المصعد حتى باغتتني يد تفتح بابه وصوت أجش أعشقه يهمس في سحر "تفضلي" .. أشحت بنظري إلى مصدر الصوت فإذا به "كمال" في أبهى حلته كأمير أسطوري تطل من عينيه تلك النظرة الآثرة السحرية. صعدنا سوياً ونزل كل من رافقنا في دوره وعلى غير العادة لم يتبق سوانا صاعداً إلى الدور الذي أعمل به .. كنت أنظر للأسفل في صمت وخجل شديدين ، فبادرني بقوله حذاء جديد ها؟.. وابتسم ابتسامة المداعب فتبسمت في خجل شديد وقد أحمرت وجنتاي فسألني أن أسمح له بأن يهاتفني اليوم بعد انتهاء ساعات العمل فتسمرت صامتة أمام سؤاله فانفجر ضاحكاً فقد كنت أشبه حينها فتاة لم تبلغ العشرين من عمرها .. أعاد علي سؤاله مرة أخرى فأومأت برأسي في خجل شديد موافِقَةً وعدت لصمتي مرة أخرى حتى أنني من خجلي لم انتبه إلى أنه ينتظر أن أعطيه رقم هاتفي .. فإذا به يطلبه بشكل مباشرٍ قائلاً: "إذا هل لي برقم هاتفك" وتبسّم تلك الابتسامة المداعبة مرة أخرى .. نزل كلانا من المصعد وتوجهت إلى مكتبي وقد انتابني شعور شديد بالنشوة والبلاهة في آن واحد .. وقد أخذت أعاتب نفسي .. ماذا عساي فعلت؟! .. ولماذا تسمرت أمامه هكذا؟! .. كم أنا بلهاء كيف له أن يتصل بي دون أن أعطيه رقم هاتفي .. يالي من فتاة غبية!!

مرَّ اليوم وأنا أتحرّق شوقاً لانتهاء ساعات العمل من أجل تلك المكالمة .. حتى أنني غرقت في أحلام يقظتي ومن فرط السعادة شعرت أني أطفو فوق الأرض لا أسير عليها .. أتودّون الحق كنت كشخص كاد يموت عطشاً في صحراء قفراء ثم وجد نبع أو تراءى له ذلك فانساق وراء هلاوسه وأوهامه..

انطلقت الصافرة معلنةً عن انتهاء يوم عمل طويل .. ركبت سيارتي مسرعةً إلى مكان لطالما قصدته في وحدتي ، مكان ساحر في المنتزه على شاطيء البحر مباشرة .. ركنت سيارتي ونزلت لأجلس على السور المطل على البحر ونظرت حولي لأجد كل ما عهدته قد تغير فقد أضفى بصري عليه من الحياة لباس نابض جديد .

رن هاتفي .. سمعت صوته لأول مرة .. أصاب الجنون دقات قلبي ياله من صوت ساحر .. تحادثنا طويلاً .. شعرت وكأنني أعرفه منذ زمن طويل .. تكلمنا في كل شيء .. كانت مكالمة ساحرة بحق.

توالت المكالمات وفي إحداهن طلب مقابلتي وقد كان بالفعل .. ويالها من مقابلة..

أتذكر أني أخذت أتحضّر لتلك المقابلة طوال أربع ساعات متتالية .. تأنقت في ثوبي الأحمر ووضعت عطري الباريسي الساحر .. طليت أظافري بذاك اللون الأحمر الدموي الفاقع .. كنت أنثى بكل ما تعنيه الكلمة من معنى .. وكان هذا ما قرأته من بريق عينيه عندما

رآني .. فقد وقف متسمراً في مكانه مأخوذاً بسحري .. أجلسني وجلس أمامي يتأملني في انبهار شديد .. حتى أنني شعرت بنبضاته تتسارع وكأن قلبه يضخ دمي.. تكلمنا لساعات تلاقت أعيننا في أحلى اللحظات ودون أن ننتبه جاء موعد الرحيل .. هممت للرحيل فاستوقفني راجياً أن أعده بموعد آخر .. وقد كان له ما طلبه فلم يكن ذاك الموعد الأخير .. توالت المواعيد وهمنا سوياً في بحور العشق والخيال..

تغيرت حياتي تماماً .. انقلبت رأساً على عقب .. لم تعد هناك وحدة ولم أعد أقضي ليلي في آلام مرهقة..

أتذكر أن أول ما جذبني لكمال هو مظهره الساحر ونظرته الملائكية ولكن هيهات بين الحقيقة والواقع فقد بدأ كل شيء في التغير للأسوأ بعد لحيظات .. بدأ "كمال" يعاملني بخشونة وقسوة لا متناهية وكأنه كان ينتظر امتلاك قلبي حتى يأخذ في جَلْدِهِ وتعذيبه .. تغير "كمال" تغيراً شديداً حيث بدأ يُعَيِّرُنِي بنجاحي وتميزي في عملي وكأنه وصمة عار وعيب في حقي .. شعرت بأني لا أعرفه وكأنه أصبح شخصاً آخر وكنت أجهل أي سبب لكل ما يفعله.

أخذ جمالي ينزوي .. تبدلت إطلالتي من السعادة إلى الحزن والوهن .. شحب لون وجهي وأسود أسفل عيني من كثرة السهر أو بكلمات أدق من كثرة البكاء والألم .. وتساءلت هل يمكن أن يحدث

هذا؟!.. ولماذا؟! ماذا ارتكبت ليقسو علي هكذا؟! .. كل ما فعلته هو أني أحببته .. وحلمت معه بطفل يختلط في عروقه دمينا.

اشتد سوء المعاملة من كمال وكلما اشتد إيلامه لي كلما زاد تضرعي لله أن يعيده إلي وأن يسعدني وإياه .. لطالما سهرت اتضرع لربي .. لطالما رفعت يدي للسماء في الليالي الممطرة داعيةً جبّار الخواطر أن يجبر ضعفي..

أساء كمال معاملتي فشعرت بأني أميرة وقعت في أسر ملك مغولي على القهر قدير .. تحولت من أميرة إلى سبية على يد كمال وللأسف فعلى قدر ما كنت عطشى للحب وعلى قدر ما نهلت منه .. على قدر ما تحول حبه كالسم يسري في دمي.

لم أعرف ماذا أفعل .. سلب مني إرادتي .. أصبح دائي ودوائي .. كنت أفعل أي شيء لينظر إلي نظرة رضا .. حتى أني فكرت في التنازل عن كل ما هو ناجح في حياتي .. فكرت في التنازل عن كل ما ميزني عن مثيلاتي ..

تلاعب بي كما يحلو له .. فكان يهادن وقتما يحتاج حناني أو يشعر أني بالبعد اتخذت قراري .. ويكشر عن أنيابه وقتما يشبع ويضمن بقائي.

ظلت علاقتنا هكذا في شد وجذب حتى فاض الكيل وجاء يوم صارحته فيه بكل شيء .. خيرته بين أن يرتبط بي ويعاملني كما تملي

منزلتي أو يتركني لآخر يقَّدرني .. ولكن تيقنه من أنه ملكني جعله يباشر في لعبة المهادنة وبسذاجتي وطهري أخذت أسبح في عهوده الكاذبة وأحلامي بالقرب منه حتى تكلمنا ليلة وعندما كنا نتحادث سألته في براءة حالمة هل سيأتي اليوم الذي أحمل فيه اسمك وأنعم بقربك وأحمل داخل أحشائي طفل من دمك ولحمك ؟! .. وما لبثت أن أنهي كلماتي حتى كشر عن أنيابه وانقلب كل شيء رأساً على عقب وقال لي لماذا كل ما يشغل بالك هو الزواج ؟!

حقيقة ذهلت من ردة فعله .. وهالني قوله فسيطر علي الصمت طويلاً .. أخذ ينهرني ويرميني بتهم كثيرة لا أصل لها كقوله أني أنانية وأني لا أراعي ظروفه وأني لا أحفل بوضعه وكلمات غريبة لا أعلم لها أصلاً ، حينها سألته في ضعف لماذا تود أن تحرمني حقي في أن أكون زوجة لك؟! لماذا تحرمني حقي في حلم تتوق إليه كل فتاة على وجه الأرض؟! .. حينها نهرني مرة أخرى قائلاً أي حلم ذاك ألا تسمعين كلامي هل أنت صماء .. أنت أنانية إلى حد أنك لا تستطيعين سماع شيء سوى صوت نفسك، حينها وحينها فقط باغته قائلةً في حزم وقسوة شديدين من فضلك لا أود أن أكون حبيبتك .. فأجابني في تراجع شديد أنا لم أقصد ذلك .. أنت من اضطرني للكلام هكذا .. فأجبته أرجوك أغلق ولا تتصل بي مرة أخرى فمن أحببته مات منذ اللحظة .. أغلقت الهاتف في هدوء دون انتظار الرد.

أتذكر أنني لم أعش ليلة أحلك من تلك الليلة .. فقد شعرت حينها أني انكسرت وأن كرامتي أهينت وانتهكت بشدة .. شعرت بأن بكائي لا يريحني بل يزيد من نار تأكل أحشائي .. تتخطفني، شعرت وكأن كل أحلامي قد تم اعتقالها ونفيت في أبعد منفى على وجه الأرض .. كانت ليلة عصيبة قُتِلْت فيها ألف مرة ..

فجأة صمت الكون من حولي ولا صوت يعلو على صوت عقلي .. حينها رأيت نفسي أجلس في زاوية معتمة من حجرة حالكة الظلمة .. أشعر أني وحيدة بشدة.. وفي ذلك الوقت فقط أيقنت "أن العلاقات القوية لا تبنى على عطش للحب أو توق لسراب .. بل تبنى على تكافؤ في الشخصيات وعلى أسس عقلانية سليمة حيث لا يتعارض ذلك مع راحة النفس والحب" . وتعلمت أيضاً "أن الرجل لا يقيم بمظهره أو بكلمة مليحة تخرج من فمه .. الرجل هو من يتحمل مسئولية كل حرف يتكلمه" .

أما عن "كمال" فيقيني أنه سيتعلم أنَّ من يجرح شخصاً فإنه بالضرورة يخلف في نفسه هو الآخر تشوهاً لا يشفى أبداً فهذا يتعارض مع طبيعتنا البشرية ، فقد خلقنا بشراً لا وحوش ضارية تنهش عبثاً. "

***

الفصل السادس والأخير
وتبسمت الأقدار

لم يعد الوضع كما كان وما عادت الوحدة تقوى على دور الكبت .. كل شيء انهار وكأنني يوماً ما كنت .. اتَّشَحَتْ أيامي السواد ولأشهر جافاني النوم .. كنت أقضي الليل جالسة أحتضن ساقاي داخل صدري من شدة البرد .. كانت أوصالي ترتعش من الوحدة .. من انكسار النفس .. من قهر القلب ، كنت أقضي ساعات وساعات في جوف الليل أنظر للسماء وأرتعد من شدة الخوف.. لم يفارق الدمع عينيَّ لأشهر طويلة .. حتى انطفأ بعيني هذا الوهج واختفت تلك اللمعة .. انمحت أي ابتسامة رافقت ثغري وعانت ملامح وجهي من ظلال الحزن وكنت كرفاة بشر.. مرت أيامي متشابهة لا جديد ولا تغيير .. آلام مستمرة متجددة ونظرات حادة ممن حولي .. وكلما وَهَنْت كلما احتدت في أعين من حولي التساؤلات.

مرت عليَّ أيام وأيام وكنت كلما جلست وحدي يشرد ذهني بعيداً ، كنت أعمل بجد ولكن ظاهري كالأحياء الأموات .. لم يعد لأي شيء معنى .. ماعدت أصبو لزواج وما عادت تعنيني ضمة طفل ومع الوقت فقدت حتى القدرة على البكاء ..هجرت كل متع الحياة وكنت كلما تألمت بذلت في العمل أضعاف الجهد.

ازدهرت حياتي العملية كثيراً وفي وعملي تألقت .. كنت أشبه بنجمة يتطلع إليها من حولها يتهافتون عليها يتوقون للمسها ولا يملكون

في ذلك حولاً ولا قوة ولكنهم لم يعلموا أن تلك النجمة تجلس في ظلامها المعتم وحدها وأنها رغم إشعاعها جسد معتم لا يعلم طريق للضوء.

فقدت مهارات التواصل إلا فيما يخص العمل وأصبح تواصلي مع الحياة كتواصل طفل أصم أبكم .. ثم جاء ذاك اليوم وكان في أوله لا يختلف كثيراً عما سبقه أو هذا ما تخيلته ..

كنت جالسة بمكتبي أتابع عملي على جهاز الكمبيوتر الخاص بي وإذا بشرودي داهمني .. وجدت نفسي أجلس وحدي في غرفة حالكة الظلمة .. شعرت بقهر وذل وهوان ما عهدتهم من قبل .. أخذت أحادث نفسي .. هل هذه هي النهاية ؟! .. هل هكذا سينتهي الأمر؟! .. نعم الوحدة قدري .. تقبلي قدرك .. ألا تفهمين أن الله منّ عليكي بكل شيء .. كل شيء إلا الحب .. كل شيء إلا طفل يسر القلب .. كل شيء .. ماعدا كل شيء .. احتدت نفسي علي وترقرقت من عيني دمعة وصَمَتُّ وصَمَتَ كل صوت بالكون..

أحنيت رأسي في استسلام لقضاء الله .. حمدت واستغفرت .. لم أتم حمدي حتى باغتني جرس الهاتف .. صوت يعرفني ولكني لا أتذكره .. سألته من المتكلم .. أجابني باسمه ورغم أنه أخبرني اسمه ثنائيا إلا أني أخطأته .. ولكني بعد أن أخطأته تذكرته .. ياااااه شخص مر بحياتي مرور الكرام .. شخص أقرب إلى ملاك يمشي على الأرض

.. شخص رغم أني من دون قصد جرحته إلا أنه ما خَلَّفَني جرحاً قط .. هالني الموقف وصدمتني الدهشة..

ألقى علي السلام في شوق وحنو شديدين ولم أكن أعلم حينها أنه مع سلامه ألقى إلي بطوق نجاة من بحر هائج في ليل قاتم طويل .. وما أن أنتهى من سلامه حتى ألقى علي سؤال صادم لم أكن أتوقعه أو حتى أتخيله .. فقد طلب يدي للزواج!!!

اندهشت ومن دهشتي داهمني الصمت .. أعاد عرضه وكنت لا أفكر حينها سوى فيما كنت أحادث نفسي به منذ لحظات وكيف استطاع سماعي .. كنت أصرخ فيعود صوتي خائب الشطآن .. كنت استنجد ولا مجيب كائناً من كان .. كيف رأى دموعي وهو لا يراني ومن حولي عني في غياب .. أخذ يحكي لي كيف أنه لسنة كاملة كان يفكر بي ويشعر بحالي .. أخذ يبثني شوقه ولوعته ويخبرني حاله وأحلامه .. كيف أنه قضى الليالي متضرعاً إلى الله تعالى أن يقربه مني ويقربني إليه .. كيف أخذ يحلم بلقائي وبقربي منه .

وفجأة وبصعوبة تملصت من سؤاله متزرِّعة بعملي وبمن حولي وأغلقت الهاتف وجلست مذهولة مما حدث .. لا أصدق أذني..

هل هكذا هي الدنيا نحب شخص ونموت لأجله ولا نرى سواه وهناك آخر قد لا نعلم بوجوده حتى .. يحيا على أمل بأن نعود إليه .. يا إلهي كم هي رفيقة أقدار الله فهو يبتلي العبد ويد رحمته سباقة إليه..

وهكذا وأخيراً تبسمت لأنثاي الحياة .. لن أخبركم عن باقي حكايتها فهي تحتاج لكتب وروايات .. كل ما أستطيع أن أخبركم إياه أنها باتت أوفر النساء حظاً وأعلاهن شأناً في كنف قلب تربعت على عرشه ومنذ ذاك الوقت لم تحمل هماً للحياة ..

***

(٢)
أنثـــــى بـــلا وطـــــن

أركض إلى شرفتي ، أجاهد كي أتنفس الصعداء.. أحاول وأحاول .. لا سبيل للهواء.. أستمر في جهادي .. يؤلمني صدري .. وأخيراً يتسلل إلى جوفي بعض من قلة ليحيي ذلك الخواء.. أرتمي بجسدي الخائر على المقعد المجاور لشرفتي ، أحاول أن أستعيد بعض من قوتي .. أغمض جفني قليلاً ، فإذا بيديه في حنو تتلمس وجهي .. تسري بجسدي قشعريرة قوية تزلزله .. تمزق مهجتي .. تستبيحني .. آه يا نفسي المتهالكة.. لكم افتقده .. افتقد لمسته .. افتقد لهوه وابتسامته.. وكم توحشت تقطب وجهه .. ووقع الجد في عنفوان غضبه.. من دونه جسدي عارٍ .. ترتعد أوصالي من وطأة الخوف .. من شدة البرد .. تائهة .. حائرة .. ممزقة .. آه وألف آه من الشوق لوصل ما عاد بالإمكان..

أحاول أن أستشعر أنامله تداعب ملامح وجهي .. تتحسس شعري .. تعيد رسم خارطتي بعد أن استباحها وحش الفراق ولبدت سماءها غيوم القهر والحرمان..

جثا على ركبتيه .. مكث بين يدي واضعاً رأسه على صدري، مطوقاً خصري بذراعيه ، حاولت أن أطوقه .. أتلمس رائحة جسده .. حاولت أن أتنفسه .. فتحت عيني فلم أجده .. شعرت بأني الآن سقطت ألف مرة من أعالي السماوات إلى أراضي الله .. فتحت عيني

فلم أجد سوى سراب حلم وطيف ما غازلني سواه .. فتحت عيني لأرى أنه قد تلاشى من حياتي ذاك السحر وجدت نفسي أحيا بلا حياة..

حبيبي كالنسيم استشعره ولكني لا أراه ، هو قصة عمري .. حبي الأول والأخير .. هو حكاية قدّر نهايتها الإله ..

زوجي وحبيبي ورفيق دربي .. شروق شمسي وغروبها .. أشعر بصدري يضيق .. لماذا رحلت وتركتني مطمع للطغاة.. تركتني للقهر يغتصبني في عيونهم كل يوم .. هذا يشتهيني وذاك يناديني وهؤلاء تجاهلوا أن لله في أقداره من قبل ومن بعد الأمر..

استيقظت من سكرتي هذه على بكاء رضيعي .. ركضت تجاه غرفتي كي أتفقده ، حملته بين ذراعي .. هدهدته بتهويده من صوتي حتى غفا ، أخذت أملِّس على رأسه .. أتحسس خصلات شعره البنية الخفيفة نزولاً إلى ملامح وجهه في رقة ونعومة بأناملي .. قبَّلته بين عينيه وأخذت أتأمله .. أحتضنه بعيني فكم تحمل ملامحه من روح أبيه ..تذكرت كم حلمنا به معاً .. تذكرت رقة أبيه وحنوه علي أثناء فترة الحمل .. وكيف كان يقبل بطني كل صباح باسماً بوجهٍ بشوشٍ يخفف آلامي ويرد روحي إلي .. تذكرت احتواءه عندما كنت أحتد معاناةً من آلام وضغوط الحمل .. لم أستطع تمالك نفسي واختنقت روحي بالبكاء .. لم يُكْتَبْ لحبيبي أن يرى حلمه يتجسد أمام عينيه.. أخذت أتأمل صغيري طويلاً في صمت .. ثم بدأت أتذكر كيف عاملني الناس بعد وفاة زوجي وكيف كانت نظراتهم إلي .. تذكرت كيف انتهز المجتمع

كل فرصة وكل موقف ليضعني في كادر كلمة "عاهرة" .. ساقطة تنتظر أي فرصة لترتمي بين أحضان رجل غريب .. أي فرصة لتتلذّذ بلعب دور الفاكهة المحرمة، وماذا كان خطئي أو ذنبي في كل ذلك؟! .. لا شيء سوى أني أحمل لقب أرملة ..

أرملة .. كم نهش هذا اللقب في نفسي ، كم عرَّضني لمواقف اجتثت من روحي مع كل يوم خالطت فيه الحياة .. بداية من أقربائي وجيراني وصولاً إلى رؤسائي وزملائي في العمل كلٌ نظر وتفحص بعينيه .. كلٌ تركتُ ما تركتْ في نفسه وكل نفس على قدر عفونتها حدثت عن مكنونها.

تجاهلوا خُلُقِي .. تجاهلوا أصلي ومنزلة أسرتي .. تجاهلوا شرف زوجي .. تجاهلوا أمومتي وكرامة طفلي وحقه في أن يحيا بشرف بين أقرانه .. أرادوا وصمه بالعار فقط من أجل أهوائهم وأطماعهم وأمراض نفوسهم .. فقط لأن أمه أصبحت أرملة ، شعرت بأن المجتمع يدفعني دفعاً للذلل ولكني أعلم في داخلي أن لفظ أرملة ليس نهاية المطاف وأنه لقب شريف ومعاناتي ومثيلاتي تكلله.. معاناتي ومثيلاتي لا تكمن فقط في فقد الحبيب وانكسار القلب.. و لكن أيضاً في أطماع الغافلين وجحود الناس بالدين..

***

(٣)
أحـــلام عاقـــر

كثيراً ما حلمت بطفلٍ منه يسكن أحشائي .. حلمت بنور عينيه .. بأنامله الرقيقة .. بضمة من جسده الصغير .. بملامسة يديه حلمت .. بل حلمنا معاً بليلة زفافنا .. تسابقت خيولنا في عوالم الأخيال .. حلمنا بأطفالنا .. تخيلناهم .. حتى أننا من شدة ما تخيلناهم رأيناهم ومن فرط الرجاء أسميناهم .. رأينا ملامحهم ، شخصياتهم علمنا ما يميزهم .. وتبارك الخالق ما أحلاهم..

مريم .. تيمناً بالسيدة البتول (رضي الله عنها وأرضاها) .. ذكية حيية .. حيوية قوية الشخصية ، محمد .. على هدي الحبيب وكم على خُلُقِه وخَلْقِه وجدناه .. شخصية متميزة عبقرية ، أما عمر فعلى خطا الفاروق ما أقواه .. قوي البنية .. حاد الملامح صارم في الحق .. شخصية آسرة مغرية .. يا إلهي كم عشقنا أخيالنا وكم برجاء من الله إياهم سألناه..

كم هو جميل أن تحب وأن يبادلك شخص ذلك الحب .. كم جميل أن نطلق لأخيالنا العنان في العشق .. وكم هو آثر أن نجد من يشاطرنا أروع حلم .. من نتقاسم معه أفراحنا وأحزاننا.

واليوم وبعد مرور السنين أقول لكم أنه وإن لم يتحقق الحلم كفاني أنه عاش حياته يعشقني .. يكفيني أن أنفاسه أفناها في معانقتي .. يكفيني أنه بحنوه أحياني وبحبه أغدقني..

أَتَذَكَّرُ ذلك اليوم جيداً .. كم كان يوماً قاسياً .. نزل علي الخبر كالصاعقة .. تلطف الطبيب بي ولكن مفاد الحديث أنني عاقر .. امرأة كالأرض البور القفر .. أخذت دموعي تنهمر .. هاهي أحلامنا تتحطم على صخرة الواقع .. أخذت أبكي وكأنه ليس للبكاء آخر .. حينها شعرت بيده تحتضن كتفي .. ضمني في حنو بأمانه حوَّطني .. كان ذلك اليوم وتلك اللحظة بالذات بداية رحلة مؤلمة لي ومضنية له..

كنت كلما نظرت إلى عينيه .. تأملت نظراته لطفل ليس له شعرت كم بعقري خذلته .. لا أخفي عليكم فكرت كثيراً في تركه عله يجد من تقر عينه بطفل ولكنه كان لي الحياة كما كنت له..

كم كان رفيقاً بي .. كان يعاملني كابنته لا فقط حبيبته .. كان كلما لمح دموع تتوارى بعيني أغدقني بعطفه ومروءته .. حرص أن يضمني كلما هاجمني الحزن بسطوته .. داعبني .. لاطفني .. حول بور رحمي إلى جنان بملاحته.

ذات يوم جلس بين يدي .. كنا نستمع للراديو لزمرة من الأغاني القديمة وكنت أملس على رأسه بأناملي حين سألته أن يتزوج طلباً لقرة عينيه .. حينها تبسم بملائكيته المشعة بالرضا وضمني ضمة شديدة .. نظر بعيني قائلاً : وهل يكون لي قرة عين من سواكي .. أنت قرة عيني وإن كنت حلمت بطفل فما حملني للحلم سوى هواكي .. أنسيتي أننا حلمنا به معاً .. حلمنا أن يجمع دمينا .. حينها دمعت

عيوننا فداهمني كعادته بخفة دمه قائلاً "ثم أنا دمي مبيولفش غير عليك يا أبيض يا طعم أنت" فتبسمت واحمرت وجنتاي في خجل شديد وانفجرنا ضاحكين وكانت ليلة ليس لها مثيل..

أخذت أيامنا تمر مابين هادئة ومؤلمة ولكنها لم تخلو أبداً من الحب الشديد .. كان هذا حالنا حتى هاجم المرض حصوني وأهلك دفاعاتي .. بدأ جسدي يبلى .. كسا الشحوب ملامحي .. كان يقضي الليل إلى جانبي ساهراً .. كان يقضي ليله ونهاره لله متضرعاً، يحاكيني في نومي حكياً دافئاً .. يبثني الأمل متمتماً "لا تخافي .. حبيبتي لا تخافي" ويطبع قبلة دافئة على يدي توقظ بي الحياة..

أتعلمون استيقظت يوماً وقد بللت دموعه يدي بعد أن أجهش في البكاء تضرعاً لله أن يبقي على حياتي.. يا إلهي كم هو رقيق وكم كنت محظوظة بأن أنار بدفئه حياتي .. واليوم وبعد أن خطّ الزمن علاماته بوجهينا لا أملك سوى أن أعترف بأنه لولاه ما كان لي ذكر ..اليوم أجلس تحت قدميه وألتمس من أنفاسه لقلبي الهرم سراً للحياة .

أخبركم أمراً .. كلما صليت كنت أطيل في سجدتي الأخيرة تضرعاً لله أن يبارك لي في عمره وأن يسعد قلبه على قدر ما أسعد قلبي وأن يجعل آخر أنفاسي في نفس لحظته فأنا منذ تزوجنا لم أفارقه ولم يكسر لي يوماً قلب فقد علمته أباً وأخاً وزوجاً وحبيباً وصديقاً فرغم أني أضحيت مسنة إلا أني مازلت طفلته ، قد يثير مشاعركم دعائي

ولكن إن سمعتم تضرعه لله من أجلي بعد تلك الرحلة المليئة بالمعاناة والألم والحرمان وأيضا المفعمة بالحب والدفء والمودة والرحمة سوف تعلمون أن عمري هو أقل ما بإمكاني تقديمه إليه.

. ***

(٤)
حالـــــة

اتخذت قراراً .. انتهت الضجة وعم الصمت المكان .. كل شيء لا يبدو على طبيعته ولكنها تعلم أنها أفضل الآن .. كانت تجربة .. لا هي سعيدة ولا هي مريرة ولكنها كانت مجرد تجربة .. تجربة مرت مرور الكرام .. كانت تشعر بأن كل شيء في غير مكانه وأن الفوضى تعم المكان، شعرت وكأنها لأول مرة تجهل ماهية الخطوة التالية في حياتها وكأن مستقبلها أصبح ضبابي فجأة .. أصبح لكل شيء احتمال وكل الإحتمالات ضمن الإمكان.. لم تكن متيمة به .. لم تكن حتى تحبه .. ولكن الوقت كفيل ليخلق نوع من الألفة قد تؤرق النسيان..

لم يظللهما تفاهم .. لم يجمعهما فكر .. ولكن معارك الحياة كفيلة بأن تشوه ولو للحظة فكر الإنسان .. ومن الغريب والمثير للسخرية أيضاً في نفس الوقت أن الحياة حينما تلعب دور الدافع المحفز للفعل فهي أيضاً تلعب دور الصفعة التي على أثرها ننهي هذا الفعل وتبعاته وكأنه لم يكن يوماً ولم يكن له ذكر..

عندما يقوم عقد على شرط زائف يكون مصيره الحتمي هو البطلان .. ولكن الزمن يجعل للعقود شرعية تتعدى أحياناً واقعها .. فقد لا نحب شخصاً ولكننا نتأذى لرحيله .. فقط لأننا اعتدنا وجوده على مر الأيام .. وهذا من فعل الزمان..

ولكن ما قد يثلج صدر البعض منَّا أن تكون له القدرة على اتخاذ القرار .. أن ينطق بالحكم وينهي القضية دون إعادة نظر بالحكم أو معارضة أو استشكال.. البعض منَّا فقط تتوافر له القدرة على اتخاذ القرارات الصحيحة وفئة أقل من هذا البعض تتوافر لديه القدرة على تنفيذ قراره وإخراجه من دور المداولة والعرض إلى دور النفاذ والسريان.

كان هذا كل ما يخالج صدرها .. كانت كمن يسكن غابة فسيحة تحدها الحرية من كل مكان .. وفجأة أصبح للغابة حدود جديدة كالقضبان .. ولكن مع الوقت تألف النفس القضبان .. تألف السجن كيفما كان .. ورغم أنه سجن إلا أننا نتأذى عندما نكسر قيوده ونحطم أغلاله .. فقد ألفنا هذا السجن رغم ماهيتنا ورغم ما نحن عليه..

وهكذا تصبح الأمور غير مفهومة والحياة ضبابية والحس يخضع للتجربة كأنك طفل يحبو أو أنك بعثت من عالم النسيان .. تشعر كأنك تختبر الأمور للمرة الأولى .. تبحث عن أكثر من كنت تشعر بهم وتقصدهم كي تتأكد بأنك مازلت تتمتع بقدرتك على الحس وأنك مازلت إنساناً..

أنا حر ..

أول ما يخطر ببالك بعدما تثبت أنك تفكر إذا أنت موجود .. أنت تشعر إذا أنت قادر على أن تعيد التجريب ولكن مع تمحيص الأمر وحينها فقط تكون قد أثبت أن الأمر ما هو إلا تجربة وهذا هو

كل ما كان .. كان هذا كل ما شعرت به وكل ما قد يشعر به أي شخص ولكنها لم تكن أي شخص بل كانت من الفئة المنتقاة لأنها ملكت من أمرها القدرة على اتخاذ القرار.. كان هذا هو الوضع وهذا ما كان من حالها بعد أن تركته للمرة الأولى !!

للمرة الأولى!!!

نعم للمرة الأولى .. فقد تدخل في الأمر ما لم تضعه يوماً في الحسبان .. تدخل في الأمر مخرب شرس .. عملة ذات وجهان .. أحدهما الوحدة والآخر الفراغ العاطفي وكلاهما كائنان موحشان بغيضان .. يحملان من المشاعر السلبية ما قد يهدم صرحاً أو يقيم آخراً ما كان له يوماً أن يقام..

بعد تجربة مماثلة غالباً ما يكون كل شيء جديد وهذا ما خدعها فقد ظنت أنها عائدة لوحدة ألفتها ولكن هيهات فللوحدة ثمن وفي حالتها كانت الوحدة نعمة من نعم الإله عليها .. نسيت أنه من خلال تجربتها لم تعد وحيدة ونسيت من كانت تألفها وتتودد إليها ..

بدأت الوحدة تمارس عذاباتها .. بدأت تضني من عادت مرة أخرى إليها وكأنها بقسوة تعاقبها على تخليها عنها .. بدأت تستشعر الفراغ .. بدأت تفتقد من يسأل عليها .. من يهتم بها .. من يحبها لا من يعشق بريقها وطمعاً فقط يتودد إليها .. أخذت في السقوط نحو هاوية لم تعد العدة لها ..

لقد أغفلت الجزء الأهم من الأحجية .. هي لم تعد كسابق عهدها .. هي شخص جديد ولد من رحم تجربة مضنية .. أنثى تختبر كل شيء من جديد وكل جديد له وقع غريب عليها!!

بدأ التفكير يطيش .. خلقت عالماً افتراضياً من احتياجها .. والطامة الكبرى أنها جعلت منه بطلاً في عالمها ومع لمسة بسيطة من إصراره على أن يعيدها إلى أصفاده اكتملت الخلطة السحرية ..

من هو ؟! .. هو صياد أراد أن يصطاد كائن خيالي ليزين به غرفته .. أراد أن يصيده ويعيد تشكيل هيئته وبنيته وأن يصبغه لون شاذ دون لونه الذي فطره ربه عليه .. وكل ما كان هذا الكائن يفكر فيه هو جمل طائشه سمم بها من حوله كل ما كان من العقل لديه .. جمل ك "ليس من الهام أن تكون المرأة أكثر ذكاءاً من الرجل" ، "لا يهم الفارق في العقليات" ، "التفكير في فرق الطبقات كبر وعنصرية"، "يكفي أن يكون لك طفل منه ليذيب كل الحساسيات والفروقات" ، "يجب أن تتنازل المرأة عن طموحها ومواهبها ومميزاتها لترضي من سيتعطف ليصبح زوجها" ، لا تندهشوا كثيراً فأحياناً أرجح الناس عقلاً هو أسهلهم وقوعاً في شرك الوحدة وللأسف قد يكون مع الفراغ الأقل حظاً..

عادت مرة أخرى لعالمه .. ومع اللحظات الأولى لعودتها استشعرت هول ما اقدمت عليه .. حدثت نفسها يا إلهي ماذا فعلت !!
وعلى أي فعل يا نفسي أقدمت!!

ولكنها كانت أمام طريق وحيد .. يجب أن تعتاد سجنها الجديد ..

وعادت إلى آذانها اتهامات من حولها ..

لأنك تعملين لم تتزوجي...

لأنك تفكرين لم تحبي..

لو أنك قبلتي بأي رجل جاءك ما كنت الآن بلا حياة..

لماذا لستي كمثيلاتك من البنات؟ !

لو كنت كمثيلاتك لكان لكي حياة وأطفال ولكنك بالطبع لا تقبلين بالإمكان..

تذكرت كيف عابوا عليها حتى رغبتها في قبول أو رضا أو تفاهم .. نظروا إليها وكأنها ارتكبت خطيئة .. أنكروا عليها أبسط حقوقها في زيجة لمدى الحياة.. حاكموها وأصدروا الأحكام عليها وباتت مذنبة لمدى الحياة..

لم تستطع أن تجابه هذا كله مرة أخرى فتلك المرة هي من قررت العودة وهي من تخلت عن موقفها .. ورغم انتقادها الدائم لمواقف الفتيات اللآتي كن في مواقف مماثلة لها ورغم رفضها التام لفكرة الزواج لمجرد الخوف من كلام الناس أو موقف المجتمع من الفتاة إلا أنها لأول مرة تفكر بالفعل كسواها من الفتيات .. وكانت تلك أول سقطة فقد أفلح في أن يحيلها من نجمة صعبة المنال إلى حجرة عادية سقطت

من السماء إلى الأرض لتصبح مجرد حجرة تتشابه مع أحجار الأرض جميعاً ..

ولكنها لم تتنبه حينها واتخذت قراراً هاماً خطيراً .. سوف تحيا كمن أفاضوا عنهن الكلام .. ستتخلى عن ماهيتها وتصبح كما يودون وكما يود أن يراها فارسها الهمام..

تخلت عن مواهبها .. عن رغباتها .. عن كل ما يميزها وقررت أن تجعل من الزواج أكبر الأحلام.. لا أعيب هذا الحلم فهو حلم سام مقدس في حياة الإناث جميعاً ولكني أعيب أن يكون الزواج هو نهاية ما يميز الأشخاص وأن يكون مقبرة للإنسان .. مجثات تجتث أحلى ما فيه من الأساس ..

لونت أيامها بلونه .. وصبغت طموحاتها بصبغته .. باتت كل الأشياء تحمل طابعه الرتيب وما عاد للحياة لون سوى البهات الشديد .. أخذت تغوص في مياهه الضحلة حتى اقتنعت أنها لم تخلق لسواه .. حتى أنهما كانا يتحدثان عنها في هيئة شخصين .. أحداهما هي حبيبته والأخرى هي المتمردة داخلها والتي وجب عليها كبحها لأنها نزغ من الشيطان..

من حين إلى آخر شعرت بالاختناق .. فمن كانت الحرية داءه تعذر عليه سواها دواء .. ومن كانت النباهة طبعه استحال عليه

استبدالها بالغباء.. كل شيء تحول للَّون الرمادي ولكنها كانت قد اتخذت خيارها وستنفذه مهما كانت التبعات ..

استمرت الحياة هكذا .. بالتأكيد كانت له لمسات لطيفه ولكن في ضوء ما رسمه لها من حياة .. كانت تستشعر السعادة بشكل وقتي ولكنها في أغلب الأحيان كانت تفتقد لجل معان الحياة .. حتى جاء اليوم الذي سقط فيه القناع عن وجه القسوة .. عن قسمات الاستبداد .. كان كغيره يصبو لغرض أكان إخضاع أم طمع في مال أو جمال .. لم يعد هذا يهم المهم أنها شعرت بأنها تخلت عن كل شيء بلا مقابل .. ورغم ذلك أصرت على إستكمال الطريق والصمود على قرارها بأن تبذل أقصى ما في وسعها لتنجح هذه المرة أو حتى تستحيل بينهما الحياة .. تناقشا .. احتدَّا .. ولظنه أنه أخضعها زادت قسوته بل أنه وجَّه إليها الإهانات .. ظنَّ أنه نجح في إخضاعها وأنه ما عاد لها من دونه حياة وكم كانت تكره أنصاف الحلول والمتجبرون على من قال فيهن رسولنا الكريم "رفقاً بالقوارير" ..

لحظتها فقط وحين نطق هو وبثقة بكلمة الفراق شعرت بأنه أطلق سراحها من قيد كاد يقتل ما تبقى فيها من حياة .. نطقها ثقةً في قدراته .. فصفعته هي رفضاً لظلم طال قبلها الكثير من الفتيات .. لن تملكني .. لن تسبيني .. لن أكون دميتك البليدة لا في تلك الحياة ولا في أي من الحيوات ..

مرَّت بأمور عدة .. ورأت منه وجوه عدة ولكن أفضل ما كان هو أنها استعادت نفسها أو لأصدقكم القول ولد لها جنين مكتمل الخلق فاتن جميل .. لم تعد كما كانت ولكنها باتت أنثى جديدة .. تعلم أنه دوماً ستمر بمصاعب ولكنها أيضا تعلم بأن الله كرمها بحسن الخُلُقِ والخَلْقِ .. باتت موقنة بأن التكافوء سواء كان فكرياً أو طبقياً أمر واجب شرعه الله جل في علاه ..

قد يظن البعض أنها بذلك قررت هجر الحب أو أنها تخلت عن حلمها الأسمى كأنثى في زوج وطفل ولكن هيهات هيهات لم تخلق أنثاي لتثنيها عن أحلامها الحياة .. فهي توقن أن التجارب خلقت لتثقل العظميات من الفتيات .. وأنه لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع وأن القدر مكتوب منذ قديم الأزل ولن يغيره ما فات أو ما هو آت من التجربات، ولكن أعظم ما أيقنت من هذه التجربة أن مكانها في السماء كنجمة تهدي الأخريات ..

بدأت تجربة بطلتي بخدي اللي يحبك يا بت متخديش اللي تحبيه وانتهت برضينا بالهم والهم مش راضي بينا .. من الآخر خدي اللي يحبك وتحبيه ويكون حبكما قائماً على ركيزة مهمة من التفاهم والتكافؤ وللعلم كل الفتيات خلقن ليكن أمهات بالفطرة ولكن قلة من خلقن ليصنعن أجيالاً من المميزين والمميزات وهن العظميات..

***

(٥)
لحظـــات حرجـــــة

بعد أشهر قليلة من الزواج .. كل شيء انهار في لحظة .. لم يكن ما بيننا دهراً ولكنك كنت أول من اختبرت الحياة معه .. كنت أول احتكاك لي ببني جنسك .. لا أعلم لماذا بالضبط انتهى كل شيء .. ولكن كل ما أعلمه هو أن كل شيء انتهى بالفعل .. كنت أجلس في غرفتنا وحيدة .. كانت أشعة الشمس تتسلل من خلف الستار في خفوت شديد .. أخذت أتأمل الجدران حولي وكأني كنت أسألها عما حدث علَّها تعلم أكثر مما أعلم أنا .. أخذت أنظر لصورتنا المعلقة على الجدار واتساءل هل كنَّا نعلم بأن الأمور سوف تؤول إلى هذا المآل .. مازال من حولي ينادونني بالعروسة .. لم يلبث اللقب أن يبلى بعد .. أخذت أنظر لحاجياتي .. أحدق لملابسي التي لم أكن بعد ارتديتها .. نظرت لحقائبي .. لأمتعتي .. شعرت بأن كل ماكان من خطبة دامت لأكثر من سنة وأشهر من الزواج .. صدمة وبكاء وفراق كل يجثم في تلك الحقائب .. أخذت أراقب كل من أمي وأختي يحزمون أشيائي .. كنت أراهم يتهامسون بالحديث خوفاً على شعوري .. كانوا يتألمون فما لبثوا أن وضعوها للعروس حتى يحزموها..

طرق حارس البناية الباب .. حمل الحقائب .. أخذت أشاهده وهو ينزل الحقائب وما حزمناه من الصناديق وكنت أحدث نفسي بأن جلّ حياتي في تلك الصناديق .. ركبنا السيارة .. بدأت المسافات تزداد .. شاهدت البناية وهي تبتعد حتى تلاشت شيئاً فشيئاً داخل سراديب

الظلام .. طوال الطريق كنت أتذكر أيام خطبتنا .. همساتنا ضحكاتنا .. ثم تلطمني لحظة أرداني صفعاً بيمين الطلاق .. صراع مرير دام لأشهر .. من سوء معاملة وضرب وسباب إلى مرافقة العاهرات من النساء .. شخصان مختلفان تماماً أو هكذا أَوْهَمَنَا .. أحدهما خط بيدي اليمنى طريق السعادة والآخر نقش بيدي اليسرى طريق شائك بالأحزان .. أخذت أنظر للظلام من حولي واسأله .. لماذا ؟! هل كان يجب أن يحدث كل هذا ؟! ماذا فعلت في حياتي لأستحق ذاك ؟! أخذت دموعي تنهمر على خدي .. كان أبي يشاهدني في مرآة السيارة .. كنت أرى دموعه تتوارى .. كنت أرى مقلتيه من ألمي تصرخان .. كنت أعلم أنه يتألم فقد كان لأبي قلب لم يعرف الحب أو الخوف على سوانا في الحياة..

وصلت إلى منزلي القديم (منزل أسرتي) .. ورغم أني أمضيت عمري فيه ورغم أني لم أطل في بعده البقاء إلا أني شعرت بأن كلينا غريب عن الآخر .. كنت وكأني أرى غرفتي للمرة الأولى .. كانت وكأنها غرفة سواي رغم أنها منذ رحيلي لم تعرف معنى للحياة..

شهر كامل وأنا أرى من حولي عني يتهامسون .. منهم من يتهامس بشفقة ومنهم من يتهامس وفي نفسه مني غصة .. كنت أرى أمي تبكي وهي تصلي في قلب الليل على حالي .. وكان أبي وكأنه

فارقته الحياة .. خيم الحزن على منزلنا .. أصبحت الآن مطلقة .. كان إخوتي يتوارون من الجيران حتى لا يجيبون عن سبب الطلاق..

تارة كان من حولي يرأف بحالي وتارة كانوا يحملونني ما على الأرض من آثام فقط لأن كائن وحشي اتخذ عني قرار الطلاق..

مرت أشهر من الألم .. أشهر من الضياع والتيه .. لحظات ولحظات ولحظات راودتني فكرة الرحيل عن الحياة .. اتخذت قرار إنهاء حياتي آلاف المرات.. كنت كلما استبد بي الحزن وضاقت بي الأرض بما رحبت لجأت إلى الله .. كنت أبكي في اليوم ألف مرة .. كانت أيامي تمضي وكأنها فيلم يتكرر عن كل ما فات .. يا إلهي فارق كبير بين من فارقت هذا البيت فتاة ومن عادت إليه كسيدة مطلقة لا أمل لها في الحياة .. ثم جاء يوم .. كان ظاهره ككل الأيام .. صحوت باكراً كعادتي لأجد أمي توضب المنزل وتطبخ في الصباح الباكر ما لذ وطاب من الأصناف .. استغربت كثيراً وسألتها لماذا تقومين بكل هذا فأجابتني بأننا اليوم سنستقبل صديقة أختي "حياة" .. يا إلهي لم أرها منذ زمن طويل.. كم كنت أحبها .. كنت أعشق حديثها .. كان لها من الحكمة ما يطرب الآذان ..

لأول مرة منذ أشهر اهتم بملبسي .. لبست لون كانت دوماً تثني علي فيه ما أن تراه .. وقفت أمام المرآة .. أخذت قلم الكحل وقبل

أن يلمس عيني شعرت بأنه لو أني اخفيت ما بعيني من حزن عن أهل الأرض جميعاً سوف تنفذ إلى مكنون صدري "حياة" ..

لبست فستاني الزهري وتكحلت ثم خرجت لأساعد أمي .. مر الوقت لأول مرة شبه طبيعي .. دق جرس الباب .. ركضت في سعادة لأفتح الباب وإذا بها الشمس تجلت في هيئة "حياة" .. جميلة بهية كما هي .. أضاءت ابتسامتها بيتنا كما كانت تفعل في كل مرة تزورنا فيها .. رحبت وأمي بها .. استقبلناها في غرفة الصالون .. جلست بجانبها ولمحت بعينها نظرة تقول أنه كما أعلم أنها سوف تنفذ إلى قلبي فأنا أيضا نفذ إلي أنها جاءت في مهمة محددة .. جاءت "حياة" لتعيد إليّ الحياة..

تجاذبنا أطراف الحديث ونحن نتناول الغداء .. ولأول مرة منذ أشهر عدة تعرف الضحكات طريقاً لشفاهي .. انهينا غذاءنا .. قمت لأغسل الصحون لكن أمي أبت وأوكلت إلي مهمة إعداد الشاي ..

أعددت الشاي وجلست و"حياة" في شرفتنا المطلة على شارع تتجلى فيه كل معاني النشاط .. جلسنا نتحدث لساعات .. رويت لها كل ما كان من حكايتي .. حدثتها عن عذاباتي لأشهر من الزواج .. حتى وصلنا بالحديث إلى ما آل إليه حالي بعد أشهر من الطلاق.. نظرت إلي بعين دهشة يخالطها استنكار .. شعرت بعينيها تسألني هل أنت من يقول هذا الكلام؟! .. هل تلك هي الفتاة التي عرف الجميع

عنها أنها عاشقة للحياة .. صمتت قليلاً ثم باغتتني بسؤال واحد .. هل بعد ما فعله يستحق أن تهبيه داخلكِ الحياة؟!

كانت إجابة السؤال سهلة وبسيطة جدا .. كانت كلمة من حرفين "لا " .. عندها صمتت كلتانا .. ثم شاغبتني بخفة دمها المعهودة قائلةً "يا بت من حبنا حبيناه وصار متاعنا متاعه ومين نسينا نسيناه ويحرم علينا اجتماعه" مش كده يا ريا يا أختي .. فوجدت نفسي أجيبها أيوه يا سكينة يا أختي .. قطيعة محدش بياكلها بالساهل .. وانفجرنا ضحكاً..

اسهبنا في الحديث عن مستقبلي ومختطاتي وكيف سأعيد بناء ذاتي .. تحدثنا كثيراً عن رحمة الله وكيف أنه يرسل مع المصائب الرحمات .. حتى أننا تحدثنا عن الشبه الكبير بينها وبين الحياة .. وعندما سألتها عن حكمتها من أين جاءت؟ .. فأجابتني"علمتني الحياة"

قالت لي أتعلمين تعلمت أنه قبل أن أبكي الأقدار يجب أن أبحث عما تود أن تعلمني إياه .. الحكمة تكمن في الدرس .. مرَّ الوقت ونحن نتحدث تارة ونضحك تارة حتى ارتمينا على السرير وقد قتلنا الضحك قتلاً ..

صحوت على نسائم الربيع العليلة .. وقد أطلَّ الصباح على نافذتي .. ولأول مرة منذ وقت طويل أسمع زقزقات العصافير .. أزحت تلك الستارة البيضاء الرقيقة عن نافذتي وتبسَّمت فأنا اليوم بسبب "حياة" ألقى الصباح على الحياة..

***

(٦)
هذيـــــان

رغم أنه يوم إجازتي فقد استيقظت باكراً كعادتي وكأنه يوم عمل كعموم أيامي ، سارعت بالفرار خارج سطوة مخدعي خوفاً من تخطف ذكرياتي ..

كالعادة قررت تحضير قهوتي الصباحية .. وحينما كنت أصبها ارتسم طيفك بأبخرتها هذياً بفعل خيالاتي.. حملت فنجان قهوتي قاصدةً مقعدي المتأرجح المجاور لشرفتي وفي تآمر غريب بين تَسَلُّلْ خيوط الصباح الأولى وصوت (جاهدة وهبه) تشدو برائعة (أحلام مستغنمي) "أنجبني" تَجَسَّدَ جلادي وملهمي ..

سيدي .. أيها المسافر الغائب الحاضر .. هل مازلت تذكرني أم انساك إياي الترحال .. هل ما زلت تذكر حماقاتي العشقية .. هل يزورك طيفي في لياليك الصيفية .. هل تشتاق إلى عيني .. سيدي في غياهب أسفارك هل حملك عطري إليَّ ..هل يوماً لَثَمَكَ النسيم لثمةً ذكَّرَتْك بشفتي .. أعلم أنك لن تجيب أسئلتي الحمقاءِ .. وأني ما عدت انتمي في قصرك لجناح النساء .. رفقاً أعذرني فأنا أسيرة الوفاء..

سيدي لي عتبٌ أبثه إليك .. إن كنت تعلم أن مملكتي زائلة لا محالة فلماذا حينما رسمت بأناملك خارطتي لم تخط لي معها سبيلاً للنسيان.. سيدي بريشة خيالاتي أبدعتك .. فحيناً وصلتك وحيناً تدللت وحيناً افتقدتك ..

تضحك سخريةً من تدلهي وعنفواني فانظر إذا ماذا فعل تيهي بك والهذيانِ .. مازلت اشتري عطرك .. انثره على وسادتي وأطلب وصلك .. مازالت وسادتي تحمل كل ليلة رأسك .. مازلت اثمل ليلاً من ثغرك .. مازلت .. مازلت..

فجأة فقدت قدرتي على الكلام وانخرس عنفواني وعم الصمت المكان .. شعرت بأني اسقط في هوة سوداء .. في انهزام استقر في القاع .. ظلمة تحوطني من كل مكان.. و في صحوة من صحوات كبريائي سألني كم من الوقت هذيت وكم سيستمر الهذيان ؟ ..

ترقرقت دمعة قهر من عيني .. ليس من شفاء في الإمكان .. ليس من شفاء في الإمكان.. أغمض عيني على صورتك فأراك تبتعد .. ولكنك ما ابتعدت إلا إلى أقرب مكان .. فرفقاً شعرت بيدك تجذبني خارج هوتي .. خارج ظلمتك .. خارج حماقات الذكرى والنسيان..

سيدي حدثني كيف غادرتك؟! .. بل حدثني أي طريق للنسيان التمست؟! .. هل بنساء أخريات؟! .. فما كان لي ولن يكون من رجال سواك .. سيدي قصدت علماء الفَلَكِ والرياضيات .. هذياً قصدت السحَّارين والساحرات .. قرأت الفناجين سألت النجمات .. فتحت أوراق اللعب خضت في سبيلك كل المهاتراتِ .. هل من سبيل لفك معضلة عشقك هل من سبيل لخلاصٍ أو للهلاكِ..

سيدي أتعلم ملكت علي صباحي والمساء .. كل صباح أنظر للشمس فتكسر عيني أشعة ابتسامتك البيضاء .. ومساءاً أطارد وجهك في ضوء القمر .. أشدو بتيه عشقي للنجمات ..

يا من ولدتك من رحم عشقي .. يا من تعشق الخلود على جدران معابد تيهي وأضرحة العنفوان ..

وكيف أنساك أجبني وكل ما حولي يحملني إليك .. كيف أنساك ومازالوا يلمحونك في مقلتي.. كيف أنساك أيها المهاجر وكل مابي يحن سراً إلى راحتيك .. أتعلم .. مؤخراً أصبح من حولي يظنون خطأً أن عشقك سلبني إيماني ومواقيت صلاتي ..

ذات يوم سمعت أنه لا راد للقدر سوى الدعاء .. فَقَرَّرت أن أنتهز كل فرص من الله للإصغاء .. بتُّ أصوم الأيام طمعاً في دعوة الإفطارِ .. بتُّ أتضرع .. أبكي .. أناجي مع كل قطرة شتاءِ .. بتُّ أقيم في جوف الليل صلواتي .. تضرعاتي .. ألتمس من الله عودة الحياةِ ..

أتَعْلَم سيدي.. مرت علي فصول كنت على يقين أني بحياتك كما أنت بحياتي .. ولكن فصولي ذابت سيدي في فراقِ العشاق ..

ذبت وذاب من حولي في أساطيري وخيالاتي .. ذبت وذبت حتى انمحت قسماتي ولم يبق لوجهي سوى خارطة هلاكي .. بتُّ لا اذكر لي عمراً من قبلك فنصف عمري أفنيته في راحتيك والنصف الآخر

أرَقْتُه في أسفاري إليك .. سمعت بأن هناك رجال لا نحصل عليهم سوى بالنسيان .. إذا فهو النسيان سبيلي إليك ..

أتعلم .. بتُّ أرى ومضات لا أعلم إن كانت حقيقة أم أضغاث أحلام.. وأنا التي أعتقدت أنه من قبلك لم يكن لي ذكر ولا أزمان..

أعتقد أني فقدت تحت قدميك ذاكرتي .. أذكر يوماً أنني كنت أنثى تعشق الألوان .. تعشق الحرية .. ومازلت غير أن حريتي باتت في بلاط السجان..

ومضاتٌ تتقاذف ومضاتٍ ولكني ما بتُّ أعشق في ملكوت سواك الحياة .. ما بات الرقص لدونك يغريني ما عدت أنتشي لإيقاع سواك .. بسمة تباغت شفتاي .. يااه سمعت قهقهتك ياله من صباح..

رجل أنت بكل الرجال ..

رجل أضحك وأبكى سيدة النساء..

وكيف أنسى من وضع تعريفاً للرجال .. هذيان!

***

(٧)
أميرة من ألف ليلة وليلة

الليلة الأولى
أميرة مملكة الخيال

كان يا مكان في سالف العصر والأوان عندما كان هناك شهريار وكنت أنا له شهرزاد يحكى أنه في إحدى ليالي الشتاء .. في ليلة عاصفة رعداء .. سمع رجل بكاءاً خافتاً حزيناً آتياً من الخلاء .. أخذت عينيه تجوب الفضاء حوله .. أخذ يهتف من يبكي ؟ من هناك ؟ برقةٍ .. بصوتٍ يشبه الهمس أجابته أنا هنا .. أنظر فوقك .. صوب السماء..

ينظر فوقه قليلاً .. يجوب الفضاء بعينيه بعيداً بعيداً .. يعيد نداءه الرنان .. من أنتِ ؟ أين أنتِ يا صاحبة البكاء ؟

يجيبه الصوت: يا أنتَ .. أنظر جيداً إلى السماء .. أنا تلك النجمة المتلألئة البعيدة .. أنا تلك المتوهجة الوحيدة .. أنا من ضللت طريقي هذا المساء..

عذراً سيدتي فأنا رجل لم يسبق له الحديث مع أهل السماء .. سامحيني ولكن كيف تتحدثين كما النساء؟! .. ولماذا تبكين يا سيدة المساء؟! .. والله إن حديثك وبكاءك لعجب العجاب..

أما عن حديثي .. فقد كنت بالأمس أميرة ممكلة الخيال .. لصوت ضحكي تخرُّ العقول وبجمالي يجنُّ الرجال .. كان لي حظ وافر من الدهاء حتى أني تفوقت على مثيلاتي من النساء.. كنت

ومملكتي حديث الممالك والولايات .. كان الرجال يتبارون أيهم يحظى مني برضا الفؤاد ..كان كل من حولي يتقربون إلي وكان قلبي مملكة عذراء .. لم يطأه بشر ولم يغبِّره الهوى لحيظات .. كان أبي الملك" ثائر" ملك مملكة الخيال يرغب في أن يزوجني ولكن أمر زواجي كان كدرب من المحال .. فمملكتي والممالك المجاورة خلت أمامي من الرجال .. توافد علي ملوك وأمراء كلهم أمام دهائي صاروا أغبياء..

ظل الأمر هكذا لسنوات وسنوات حتى أتى للمملكة زائر .. مجهول مغبر مكفهر حائر .. عاش الغريب بين أهل المملكة .. ما يرضيهم يرضيه وما يرهقهم يرهقه .. لم يعلموا حقيقته أو من هو .. كل ما علموه هو أنه غريب لا أهل له ولا وطن .. رحالة حائر .. اشتغل بالتجارة واشتهر بالشطارة .. تَاجَرَ الغريبُ في كل شيء .. كل ما تشتهيه نفس بالإمارة .. ذاع سيطه واشتهر وفي يوم من عموم أيام الدهر .. صادف الأميرة في إحدى زياراتها للعامة.. لمح موكبها العظيم قادماً .. وحينما اقتربت أمعن النظر .. فلكزه الحارس زاجراً (أخفض القامة يا هذا واكسر النظر).

لحسن حظ التاجر توقف الموكب أمامه .. أزاحت الأميرة أستار هودجها في رفق .. أنزلت إحدى قدميها إستعداداً للنزول .. فرأى التاجر قدماً مخضباً بالحناء ذات كعب أنثوي ناحر تزينه الخلاخيل

والجواهر .. فاسترق النظر .. فإذا به يتجلى وجهها المليح الساحر كما في تمامه البدر..

نزلت عن هودجها .. تبسمت في رقة .. ركض بعض الأطفال إليها .. أحتضنتهم في حنو وعطف شديدين .. لوحت مودعةً استعداداً للرحيل معلنةً نهاية زيارتها .. كاد قلبه ينخطف معها .. خفق قلبه بشدة .. زاغت عيناه..

صراخ مفاجيء !!! هرج ومرج !!! يا إلهي !! ما هذا ؟..!

تلقى الغريب عن الأميرة سهم في الصدر..

صرخت الأميرة .. يا حراس أدركوه .. هلموا أغيثوه..

حمله الحراس إلى القصر .. رافقتهم الأميرة مرتعبة متوجسة .. صرخت آمرة : "هلموا ضعوه بمخدعي .. أحضرو الطبيب حالاً في أي حال وأياً كان ملبسه "..

وقفت تتأمل في قلق ملامحه .. تعتريها الدهشة من موقفه..

حضر الطبيب .. أخرج السهم من صدره .. طهَّر الجرح وضمده .. وقبل أن يغادر أخبرها أنه فعل ما عليه والله أعلم بما لديه .. ما عليكم سوى أن تدعوا له .. ومحتمل أن تنتابه حمى فأعينوه عليها بكمادات باردة..

غادر الطبيب .. أمرت الأميرة وصيفاتها أن يجلبوا المياه الباردة .. جلست برفق إلى جانبه .. سهرت طوال الليل بنفسها تطببه

.. نامت العيون إلاعينيها .. ظلت في حنو تتأمله .. ولأول مرة يحدثها قلبها برجل "ما أوسمه .. يشبه الفرسان في طلته.. "

ظلت على هذا الحال أيام وليال .. لم تذق عيناها النوم ولو لدقائق .. لم تفارقه سوى لمواقيت الصلاة .. كانت تفترش الأرض بجانبه لتصلي .. تتضرع لله أن يُتِمَّ شفاءه وأن يُرِي النور من جديد لعينيه.. حتى جاء الفجر في يوم بالخير بين يديه .. أذن المؤذن للصلاة .. همَّت وتوضأت وفي الصلاة جوَّدَت .. وفي الدعاء بعذوبة صوتها وملاحة كَلِمَها أسهبت .. فاستيقظ التاجر على صوتها الساحر وتمتم في ضعف الحمد لله الذي هداني أن أدركك.. فهرولت إليه مسرعةً .. حمداً لله على سلامتك .. ماذا أفعل لأكافئك فكل الشكر لا ينصفك ؟..

يا حراس .. أرسلوا في طلب الطبيب .. لقد استفاق التاجر الغريب..

حضر الطبيب .. كشف على المريض .. شفي المقدام يا أميرتي تماماً .. وإن أراد أمكنه اليوم الرحيل..

بعدما أشرق وجه الأميرة لخبر شفاء الغريب .. تلبد بهموم الفراق الأكيد .. ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها ورسمت ابتسامة رقيقة على ثغرها وتمتمت إذا هو الوداع أيها النبيل .. ولكن قبل الرحيل كن ضيف أبي الملك "ثائر" .. يا خُدَّام حضِّروا المآدب سيصل الملك من سفره بعد قليل..

وصل الملك في موكب عظيم مهيب .. ارتمت الأميرة بين أحضانه .. لمعت بعينيها دمعة لم يلحظها سواه .. فانخلع قلبه عليها وانتفض .. ماذا بك صغيرتي ؟؟

نظرت إليه وكأنها تشتكي ما أوشك من فراقها إليه ولكنه لم يدرك بعد أي موقف لديه .. أخبرته بالحكاية كاملة ولكنها أغفلت جزء افتتانها عن عمد في حكيها إليه..

أمر الملك بأن يأتي الغريب إليه..

دخل الغريب على الملك في وقار وأدب .. حيَّاه وجلس بين يديه..

في عظمة وقوة قال الملك أحكي يا غريب حكايتك..

تردد الغريب وبعد سكوت دام برهة .. قال اعفيني أيها الملك العظيم فأنا لا أعلم لي حكاية ومنذ زمن وأنا شارد غريب .. لا أعلم لي أهل ولا وطن .. وإنَّ ما لدي لأحكيه يا مولاي لهو قليل القليل .. أما عن اسمي .. فكل من مررت بهم لقبوني بالغريب..

صمتَ الملكُ للحيظات .. تفرَّسَ في وجه الغريب بحثاً عن صدق أو كذب .. كان الملك قد أيقن ما كان من حال ابنته وأنه أمام غريب رغم ظاهره الملائكي مريب..

بماذا شعر الملك ؟ وهل صدق في شعوره بالغريب ؟ وما هي حقيقته وما كان من سر لديه هذا ما سوف نعرفه في ليلة قادمة..

مولاي حل الصباح وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح عذراً أدركني الصيّاح .. مولاي

***

الليلة الثانية
القرار

بلغني أيها الملك السعيد ذو العقل الرشيد أنه عندما طلب الملك من الغريب أن يحكي حكايته فتردد وارتبك مما أثار القلق في نفس الملك فأخذ يحادثه بحثاً عن صدق أو كذب .. مرَّ الوقت سريعاً في الحديث .. أمر الملك بأن يُعطى الغريب وزنه ذهباً مكافأةً لإنقاذه الأميرة من ذاك السهم الغادر .. فأبى الغريب أن يأخذ المكافأة لأن روح الأميرة لا تكال بكل كنوز الأرض ..رحل الغريب عن القصر..

وقفت الأميرة في شرفتها تتأمله يبتعد .. نظر الغريب للأعلى صوب وجهها .. فلوحت له مودعةً بمنديلها .. ثم تركت المنديل للرياح تحمله هدية ليده..

التقط المنديل واختفى الغريب في الفضاء البعيد ..عومل الغريب بين أهل المملكة معاملة الأبطال .. راجت تجارته وربحت بضاعته وأصبح الغريب بين أهل المملكة فارساً مغواراً..

تردد الغريب كثيراً قبل أن يحاول رؤية الأميرة .. صار يختلق في زيارة القصر الأعذار .. بات يحوم تحت شرفتها ليل نهار .. أخبرت الوصيفات الأميرة .. باتت تنتظره كل يوم .. ثم جاء يوم حدَّثَت نفسها لماذا لا تقابله؟! .. بات حلمها وما تتمناه .. لماذا لا تقابله ؟.. !

أرسلت له إحدى وصيفاتها محملة برسالة مفادها .. سيدتي تبلغك" انتظرني في طرف الغابة عند الجدول تحت شجرة الياسمين القديمة الفرعاء" .. همَّ يسابق الرياح للقاء الأحباب .. من فرحته لم ينتظر الوصيفة لتخبره بموعد اللقاء..

مضت ساعات وساعات غلب النعاس الغريب حتى حل المساء .. فاستفاق في ذهول مما حدث واستغرب أن الأميرة لم تظهر بعد .. ثم تذكر أن الوصيفة لم تذكر الميعاد .. فراح يلعن الشيطان فقد أَنْسَتْهُ الفرحة أن يسألها عن الميعاد.. هرول للقصر مرة أخرى .. فوجد عند سياج الحديقة منديل وردي مربوط بشجرة الورد البيضاء كتب عليه: **"رب حلم أرَّقَ الأحباب يأتي له الغد ميعاد.. بين لهفة واشتياق يشهد المساء لقاءً بعد غياب"**

وأتى بسترِه المساء .. وتبدَّى بسحره اللقاء .. ليجتمعا لأول مرة العاشقان منذ ألف عام بعمر الأشواق .. طيف فرس أبيض يشق الأشجار .. تعتلي الفرس جميلة في عباءة حمراء .. يتوقف الفرس أمام الغريب .. يمسك فارسها بلجام فرسها بيدٍ ويده الأخرى تمسك بإحدى يديها لتنزل في عشق عن سرجها .. تقف في ذاك الغموض الملتحف بالسحر أمام عينيه ملثمة بخمارها لا يظهر منه سوى عينيها بكحليهما .. يمد يده ليكشف عن وجهها .. يا الله .. تبارك الخلاق في صنعه .. من بنات الأنس سيدتي أم من حوريات الجان..

تحمر وجنتا الأميرة .. يلقي القمر بضوئه على وجهها فيتجلى جمال العينين .. يتأملها فارسها وينطق بكلمات تذهب عقل أهل الأرض والسماء..

" ومن العيون ما يقتل دون إنذار ومنها ما يحيي كما الأقدار ومنها ما تعجز أمامه فلا تعلم هل صعدْتَ لنجمة أم ضرَبَك إعصار "

نشب بين الأميرة والغريب حب لم يُشْهَدْ له مثيل .. كانت الأميرة تتخفى في عباءتها الحمراء فلا يبرز منها سوى العينين لتلتقيه في أطراف الغاب وعلى هذا دام الحال فلم يُلْقِيَا للكون بال ..

راقبهما الملك من بعيد دون علمهما .. حتى جاء يوم واستدعاها الملك لحضرته بعد أن تركت الغريب لوحدته .. صرف الحراس وغلَّق الأبواب وفي حزم الملوك أمرها بالجلوس بين يديه .. بادرها قائلاً : علمت بسطوة الملوك وحكمة الحكماء أنكِ على علاقة بذاك التاجر المريب من أسموه الغريب .. وأنكم تلتقون كل يوم دون علمنا بأطراف الغاب وكنا نراقبكم من بعيد .. هل هذا ما أملاه عليكم ضميركم ووضعنا ؟!

ارتبكت الأميرة ولمعت بعينيها دمعةُ مَنْ عَلِمَ ما انتظره من مصير .. فصمتت قليلاً ثم تمتمت في وجلٍ شديدٍ "يا سيدي هل أحدثك كملك أم كوالدي ؟.. "

فشعر بضعفها ورفق بحالها الأب الملك .. وبصوت بين الحزم والحنو أباح لها الحديث قائلاً هاتي ما عندك يا ابنتي..

يا سيدي إنك أحسنت على الدين نشأتي .. من العلوم والفنون أتخمت جعبتي .. فصار العقل حاكماً.. و القلب جامحاً .. وصارا في الكون لا يرضيهما رجل .. تصمت قليلاً .. ثم تواصل .. يا سيدي ظن العامة قبل الخاصة أني سيدة بلا قلب .. وأظنك يا سيدي منهم في الظنِّ تقترنُ .. يا سيدي ما حدثتك قط عن حلم أرَّق المهد .. وألم استباح منذ زمن الوجد .. تصمتُ قليلاً .. من عينيها تترقرق دمعة ينخلع لها القلب .. تواصل .. هل يوماً أثقلتك بآهة قط ؟.. !

ينظر لها الملك في ذهول .. في صمت .. لأول مرة منذ كانت صغيرة يراها تبكي .. يحادث نفسه ماذا فعل بها هذا الشاب ؟ ! يعتدل الملك في جلسته .. يمسح في غموض لحيته .. يتفرس في وجهها .. من نظرته تعلم أنه اتخذ قراراً صعباً يرتعد له القلب .. ماذا كان قرار الملك ؟ وماذا كان موقف العاشقين ؟ هذا هو ما سوف نعرفه في ليلة قادمة من ليال ألف ليلة وليلة..

مولاي حل الصباح وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح عذراً أدركني الصيّاح .. مولاي

***

الليلة الثالثة
شجرة الياسمين

بلغني أيها الملك السعيد ذو العقل الرشيد أنه حينما اعتدل الملك في جلسته .. ماسحاً في غموض لحيته .. متفرساً في وجه ابنته .. كانت الأميرة العاشقة تنتظر قراراً إما بالحياة أو بالموت .. صمت الملك قليلاً .. نظر إليها نظرة حادة قوية .. شعرت أن قراره سيكون أمراً بالموت فترقرقت من عينيها دمعة حزن .. لحالها تبسم الملك بسمة حلم قائلاً: "حسناً لكِ ما شئت يا ابنتي ، اذهبي للغريب .. أخبريه أن يأتي إلي غداً بعد صلاة العصر" .. ركضت الأميرة في فرح إلى مُهرها .. امتطته وانطلقا معاً يسابقان الرياح في لهفة إلى الغريب الذي أصبح بأمر الله حبيب قريب .. عبرت بمُهرها الغابة .. كانت سعادتها كسحرٍ تنثره على كل ما حولها .. وصلت إلى شجرة الياسمين الفرعاء .. التقاها الحبيب تحت الشجرة باسطاً يديه إليها .. ارتمت في أحضانه في سعادة لا مثيل لها .. كان مشهداً ساحراً وأفرع الشجرة المحملة بالياسمين تتدلى وكأنها تخفيهما والنسيم يداعب الفروع وشذا الياسمين في عشق يلفهما .. فجأة اشتدت الرياح وبدأت أفرع الأشجار تتحرك بقوة .. نظر الغريب حوله باحثاً عن مكان ليستترا به وإذا بالسماء تمطر عليهما .. في خضم بحثه وقعت عينيه على الأميرة وقد أغمضت عينيها واتجه وجهها إلى السماء وفتحت ذراعيها للرياح وكأنها

تحتضنها .. وقطرات المطر تتساقط كالنجمات على جسدها .. تغمرها .. كانت تشع جمالاً وسحراً .. وقف في ذهول وعشق يتأملها متمتماً تبارك الله في خلقه ما أجملها من شبهها بالقمر ظلمها وهل يرتقي القمر لمرتبة جمالها.. أخذ الحبيب يلف حولها في بطء شديد للحيظات وكأنه يود أن يحفظ في ذاكرته سحرها من كل الجهات ثم توقف أمامها ناظراً بتدله إليها.. ضمها إلى صدره بقوة وقبّل جبينها .. سبحان من جمع بين قلبيهما ..

أخذا يركضا وراء بعضهما البعض حتى سقط على الأرض تحت شجرتهما جاذباً إياها لتسقط بين ذراعيه .. جلسا هكذا طوال الليل وقد ألقى القمر بضوئه الفضي عليهما فزادهما سحراً على سحرٍ .. وعند ساعات الصباح الأولى همت الأميرة عائدةً إلى قصرها وقد أخبرت الحبيب أن والدها ينتظره بعد صلاة العصر .

أقبل الغريب على الملك في أبهى حلته كأنه أمير منحدر من سلالة ملوك .. جلس بين يدي الملك في هدوء وأدب .. جمعتهما لحظة صمت طويلة لا يعلم كلاهما من يبدأ الحديث .. نظر الملك إلى الغريب .. تبسم الغريب ابتسامة سعادة يلفها حرج .. همَّ قائلاً مولاي لقد جئتك طالباً .... ، استوقفه الملك قائلاً يا حراس أعلنوا خطبة الأميرة على الغريب التاجر .. وغداً بإذن الله نقيم لخطبتهما حفلاً ساهراً

.. ثم نظر إلى الغريب وقال له أراك غداً في تمام بهائك يا نسيب الملك ..

خرج الغريب وسعادته تملؤه يكاد يطير فرحاً مما علم .. أُعْلِنَ الخبر في جميع أرجاء المملكة .. حان الموعد .. ذهب التاجر إلى القصر في موكب كمواكب الملوك.. انتظر عروسه لتتنزل لأجله .. ها هي تتجلى كما القمر بيد أبيها.. أخذت تتهادى على درجات سلمها في سحر .. تتنزل كهبة إلهية لأجله وحده اليوم .. أخذ بيدها وقبَّلَ كتفي الملك ويده اليمنى .. باركهما الملك وقبَّلَ جبينيهما .. انطلقا في موكبهما بسعادة بين أهل المملكة .. أخذ الكل يرقص في سعادة وفرح لا مثيل لهما .. في خضم انشغال الجميع جذبت الأميرة حبيبها من يده امتطيا فرسه راكضين إلى الغابة حيث شجرة عشقهما .. نزلا من على صهوة جواده .. جلست تحت قدميه همست في ولهٍ ورقةٍ :

أميرة خيروني بين عرشي وقلبك .. فاخترت أن أعيش جارية تحت قدميك
ليس ذلاً أو هواناً ، ولا قهراً أو استكانة .. إنما هي رغبة تشعر القلب بالأمان
عندما أكون معك أطير كالفراشة وأصبح كالأطفال ..
كلمة ترضيني ووعد يكفيني ولمسة تنقلني من حال إلى حال ..
أحببتك حتى الموت وسكنتَ فيَّ الوجد وتنفستُك كعبير الورد ..
أهديتك قلبي ، وتوجتك ملكاً على عرش وجدي ..
وتنازلت عما أنا فيه .. علَّ ضعفي يرقق قلبك لقلبي ..

انحنى الحبيب ليأخذ بيد مليكته جاذباً إياها لتنهض بين يديه .. نظر إلى عينيها في حب وامتنان شديدين .. من هول ما تلفظت به

وعظمته لم يعلم ماذا يقول .. جذبها إلى صدره .. ضمها بقوة شديدة .. همس بأذنها :" آه لو تعلمين يا مليكتي كم أعشقك" .. قبل جبينها ويديها .. وانحنى ليأتي بزهرة حمراء جاورتهما على الأرض .. ما أن قطفها وهم ليقف .. حتى داهمه سهم غادر بصدره .. سقط بين يديها .. أخذت الأميرة تصرخ في هول وصدمة ولكن لم يسمعها أحد .. أخذت تستنجد .. أدركوني .. أغيثوني .. وفي موجة من البكاء أخذت تركض يميناً ويساراً لا تعلم ماذا تفعل أو إلى أين تذهب لا تجد من يدركها .. سقطت على الأرض بجانبه تنظر إليه تارة وتارة أخرى إلى يديها المخضبة بدمائه في ذهول وكأنها انفصلت عن كل ما حولها ودموعها تنهمر بشدة .. ثم وقفت فجأة وأخذت تحاول جذبه تجاه جواده .. عانت كثيراً حتى استطاعت رفعه على صهوة جواده وجلست خلفه وانطلقت به إلى القصر مسابقةً الرياح .. ما أن وصلت القصر حتى صرخت .. يا حراس أدركوني .. أغيثوني .. خرج جميع من بالقصر إليها .. هم الملك إلى ابنته يحتضنها .. لمحت بعينيه نظرة لم تعهدها قط .. نظرة غدر .. أخذت تبتعد عنه .. حاول الملك أن يقترب منها وأن يأخذ بيدها ولكنها أبت وامتطت جواد حبيبها وأخذت تركض بكلاهما لا تعلم إلى أين تذهب حتى اخترقت الغابة فوجدت كوخ بأطراف الغابة أنزلت حبيبها من على صهوة جواده ووضعته داخل الكوخ على فراشٍ بالٍ قديمٍ ينمُّ عن كوخ تم هجره من سنين .. وضعته

وخرجت تركض لتبحث عن شيء يطببه ومياه لتنظف بها جرحه واثناء بحثها تذكرت كلمات إحدى وصيفاتها عن ساحرة شريرة بيتها بأطراف الغابة قد تستطيع إنقاذ حبيبها ولكن مقابل شيء هي فقط من تحدده .. اعتلت الجواد وأخذت تركض إلى بيت الساحرة .. ما أن وصلت حتى هاج الجواد وماج .. ياله من مكان موحش مخيف .. نزلت عن صهوة الجواد واقتربت في حذر من بيت الساحرة تتمتم باسم الله الحفيظ .. وقفت بالباب تطرقه .. انفتح الباب محدثاً صريراً مخيفاً .. وإذا بصوتٍ موحشٍ رهيبٍ يردد أهلاً بالأميرة ابنة ملكنا الرعديد .. أهلاً بابنة من نفاني إلى الغاب البعيد .. الأميرة تريد حياة الحبيب .. ماذا عساكِ مقابل حياته تدفعين ؟؟ اقتربت الأميرة تجاه الصوت وإذا بها عجوز قبيحة .. بصوت خفيض قالت الأميرة بسم الله الحفيظ .. يا سيدتي أدفع لكِ أي شيء تريدين .. فضحكت الساحرة ضحكة شريرة واقتربت من وجه الأميرة وتلمسته بيديها الدميمة قائلةً "أي شيء ؟!.. فأجابتها الأميرة "نعم .. أي شيء تطلبينه" ..

فأصرَّت الساحرة "حتى وإن كان هذا الشيء هو وجهك الساحر وجمالك الفتّان .. وصوتك الجميل ؟.." أجابت الأميرة في قوة وحسم "أي شيء مهما كان" .. فأجابتها الساحرة بضحكة شريرة مجلجلة وأردفت في خبث شديد "إذا لكِ ما شئتِ .. لكِ ما شئتِ" وغطى ضحكها الكون واختفى كل شيء فجأة ووجدت الأميرة نفسها تقف

وحيدة في العدم يلفها الظلام والضباب من كل صوب وحدب حتى ظهرت الساحرة الشريرة في هيئة الأميرة من وسط الضباب همت الأميرة تكلمها فلم يخرج لها صوت .. يا إلهي جردتها حتى من صوتها .. لم تترك لها سوى العينين .. أعطتها الدواء واقتربت منها قائلةً "تركت لكِ عينيك فإن كان أحبك حقاً سوف يتعرف عليك وحينها فقط إن قبلك كما أنت فلك ما أخذت منكِ .. آه من قلبي يالي من ساحرة رحيمة القلب وانطلقت بضحكة سخرية مجلجلة .. ثم اقتربت من وجه الأميرة في خبث وشر وهمست أما إذا رفضك ستكونين دفعتي ثمناً غالياً لحياة من لأجل المظاهر سوف يتخلى عنكِ .. خطفت الأميرة قنينة الدواء من يد الساحرة وركضت عائدةً وحينما كانت تركض تردد صوت الساحرة قائلاً "لا تنسي ثلاث نقاط فقط كل يوم" ركضت إلى الكوخ المهجور حيث هو ممدد حبيبها .. جلست بجواره .. رفعت رأسه إليها .. وضعت ثلاثة نقاط من الدواء على شفتيه .. ابتلعها بصعوبة وهو هائم في غيبوبته .. جلست بجانبه تهتم به وتطببه .. ظلت تعطيه الثلاث نقاط يومياً .. كان جسده محموماً وكانت دوماً تدعو بالشفاء له .. كانت تراقبه وهو ينطق باسمها في غيبوبته وتنتظر أن يفتح عينيه ويميز عينيها فتعود بكامل جمالها وصوتها إليه .. كانت تخرج من أجل جلب الطعام فقط .. سمعت الكثير والكثير عن تغير حال الأميرة وكيف أصبحت طباعها شريرة ..

حتى جاء يوم كانت تصلي وتدعو الله أن يكتب الشفاء لحبيبها وما أن سلَّمَت واتَمَّت صلاتها حتى سمعت صوت حبيبها ينادي عليها فَهَمَّت إليه فَرِحَة فإذا به يفزع منها .. فزع قائلاً يا إلهي كم أنت قبيحة ابتعدي عني .. حاولت أن تخبره ما حدث لها ولكن لم يسعفها صوتها .. صمتت وترقرقت من عينيها دمعة ألم .. نظر إليها في شفقةٍ وجزعٍ شديدين .. أراد أن يحدثها بشيء ولكنه لم يستطع .. فلملمت أشياءها وهمت ذاهبة فاستوقفها قائلاً "يا سيدتي البيت في أصله لكِ أنا من سيذهب إلى دياره فهناك أميرتي تنتظرني .. بالتأكيد هي لا تعلم أين أنا أو ماذا حلَّ بي وإلا لما تركتني" ..

ودَّعها وتركها لحزنها وألمها ووحدتها وذهب إلى أميرته في قصرها..

ما أن وصل حتى فوجيء به الحراس وصدم برؤيته الملك .. ما أن رأينه الوصيفات حتى أسرعوا إلى أميرتهن ليخبرنها عن حبيبها .. علمت الساحرة الشريرة المتخفية في شكل الأميرة أي اختيار كان من الحبيب وأنه أغفل العيون الحقيقية لأميرته فتمتمت وها هو حبيبك أيضاً بات لي أيتها الأميرة المسكينة وقريباً سوف يكون لي أيضاً عرش الملك وجلجلت في أرجاء القصر ضحكتها الشريرة ..

نزلت إليه وما أن قابلته حتى ارتمت بين ذراعيه ونظرت لوالدها نظرة آمرة قائلةً أقيموا الأفراح وأعلنوا زواجنا ..

في رضوخ غريب أعطى الملك أوامره بإقامة الأفراح والليالي الملاح .. وهزَّ الخبر أصداء المملكة .. ووصل الأميرة المسكينة خبر زواج حبيبها من الساحرة الشريرة .. جلست تبكي تحت شجرة الياسمينة .. وإذا بالشجرةِ تحدثها .. فزعت الأميرة من حديث الشجرة وتمتمت بسم الله .. فقالت لها الشجرة "لا تخافي يا أميرتي فأنا ساحرة الغابة الطيبة .. علمت بحالك وما جرى لكِ .. لو أنك فقط أتيتي إلي .. اتركينا مما فات والآن اذهبي إلى حبيبك وانظري إليه وبمشيئة الله سوف يتعرف عليكي قلبه ولن يخذلك .. ركضت الأميرة إلى عرس حبيبها على الساحرة الشريرة .. قابلته على باب القصر .. وقف يتأملها ووقفت تتأمله .. كانت عيناها تنطق له بما تحمله من شوق إليه .. ربَّتَ على كتفها وأمر الحراس بأن يكرموها رداً لمعروفها .. يا إلهي مرة أخرى خذلها .. جاء موعد العرس ورأته يمسك بيد امرأة على هيأتها ولكن ليست هي .. وقفت في حزن تتأملهما .. وتبكي بكاءاً حارقاً .. حتى لمحت شخصاً ما بين الحضور يتأهب ليرمي الملك بسهم مسموم .. انتفضت مرتعبة وركضت تجاه الملك فإذا بالسهم بدلاً من أن يصيب الملك يخترق قلبها .. وقعت على الأرض أمام كل من الملك والحبيب والساحرة الشريرة .. زال السحر وعادت كلاً من الأميرة والساحرة إلى هيئتهما القديمة .. وقع كلاً من الملك والحبيب على الأرض بجانب أميرتهما مصدومين .. جلسا بجانبها ينتحبان ..

الحبيب: يا إلهي ماذا فعلت؟! .. كيف لم أعرفك حبيبتي؟! ..
الملك : رحماك ربي .. كيف لم أميز ابنتي ..

وضعت أناملها على شفاة حبيبها .. أمسكت بيد ملكها ووالدها .. همست في ضعف "حمداً لله على سلامتكما .. وما نفع حياتي إن لم تكن فداءاً لأحب من لدي" ضمها الحبيب بحنو إلى صدره باكياً .. أعاد النظر إلى عينيها متمتماً كيف لم أعرفك يا حبيبتي؟! كيف ؟! .. أغمضت الأميرة عينيها .. سقطت يدها من يد والدها .. رحلت في هدوء عن الكون ..

دوَّت صرخة كلاً من الحبيب والملك في جميع أنحاء المملكة معلنةً حداداً لا نهاية له .. فجأة تظهر فراشات مزركشة بأزهى الألوان .. تتجمعن ليشكلن الساحرة الطيبة .. تمدُّ الساحرة يدها للأميرة .. ترتفع بروحها الذكية إلى السماء متوهجة .. تودِّعُ الأميرة والدها وحبيبها بابتسامة آثرة بآثار حزنها ملتحفة حائرة .. رغم كل الألم ساحرة ..
تخبرهما الساحرة بأن الأميرة سوف تصبح نجمة في السماء .. وأنهم لم يروها سوى في الليالي الحالكة المظلمة ..
النجمة: وهذا ما كان من حكايتي أيها الغريب عابر السبيل .. بعيدة أنا عن حَبِيبايْ .. وحيدة في تلك السماء الشاسعة .. أشع نوراً لعابري السبيل .. وأعتصر ألماً فأنا دليل من لا دليل له ولا أملك على وجهتي دليل ..

عابر السبيل: يا إلهي .. كم هي محزنة قصتك سيدتي ..ويا لهذا الكون كم يحتوي على قلوب حائرة وعشاق مكلومين ..

النجمة تشع رضا قائلةً: لا يغرنك حزني أيها الغريب .. فأنا رغم الألم نجمة تهدي الملايين ..

وهذا ما كان من حال الأميرة المسكينة وعاشقها الولهان وما كان من قدرهما وأحزان أعظم ملوك الزمان ..

مولاي حل الصباح وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح عذراً أدركني الصيّاح .. مولاي

***

(٨)
ساديـــة قلـــم

كنت قد احترفت الألم والقلم معاً في سنٍ صغيرةٍ .. أو بتعبير أدق في مرحلة من الأنوثة مبكرةٍ وثيرةٍ .. كنت اعتمد في كتاباتي على الذكريات .. ذكريات لرفاة عشاق .. ذكريات لآلام .. لدموع ..
ذكريات توقد دوماً نيران الشوق وتمجد مواقع الأشواق ولكن دوماً كان هناك معضلة تقابلني وهي شراسة الذكريات فهي وحش كاسر يستحيل ترويضه أو هذا ما كان من تفكيري حينها .. قضيت عمراً في ترويض آلامي .. حتى بت أعلم كيف أطوع الذكرى وأسطر بقلمي الآهات ..
أذكر أنني توقفت عن المطالبة بحق النسيان منذ زمن طويل مما أثار في نفس أعز صديقاتي – وقد كانت من الكاتبات هي الأخرى – الذهول في وقت ما .. كانت تمر بلحظات حرجة في قصة عشقها .. كنا نتحدث عن الحب والحياة .. عن الذكريات .. وأثناء حديثنا تَفَوَهَتْ بكلمات عن النسيان وتضرعات لله كي تنسى من تحب .. ابتهالات كي يتوقف الألم .. كان في حديثها من الجنون والسفه ما أثار حنقي عليها .. أي امرأة تتفوه بتلك الترهات .. وكاتبة؟! .. نسيان الذكريات يعني موت الحب .. موت الحب يعني اندثار الآلام مما يحتم بالضرورة اندثار الحس وقد كانت هذه مشكلتي مع الحياة فلا كتابه من دون حس ولا حس من دون ألم ولا آلام من دون ذكريات .. كانت هذه بمثابة مسلمات بالنسبة لي في عالم الكتابة .. كانت كلماتها بالنسبة إلي ترهات وكان تعقيبي بالنسبة لها بمثابة جنون وابتداعات .. فعندما

واجهتها بما أثار حنقي صمتت قليلاً في ذهول ثم عقبت بدهشة يخالطها انبهار : "لم أرَ بحياتي امرأة تحترف السادية لأجل الكتابة"

جملة صادمة أدهشتني ولكنها في ذات الحين أعجبتني .. فقد شعرت بعظمة خالطتها نشوة انتصار .. كانت جملة صديقتي بمثابة نيشان يسدل على آلامي الستار ..

ظللت أفكر كثيراً في حديثنا .. في جملتها .. أخذت ابحث في ذاكرتي عن أول مرة مارست فيها سادية القلم تجاه الذكريات .. بحثت وبحثت حتى لاحت صورتك من داخل صندوق ذكرياتي .. حينها فقد تذكرت كنت أنت أول من ألهمني السادية .. في ذلك اليوم بالذات .. صمتُّ .. أرحت رأسي للوراء قليلاً .. أغمضت عيني ..

بدأ الأمر بيوم مشرق ذكرني بابتسامتك .. بقصتي معك .. حينها أمسكت القلم وكتبت: "اليوم أعتقد أنك تبسَّمت .. فمن بياض السن أشرق الكون" .

يا إلهي مازلت أتذكر تلك الابتسامة الملائكية .. شفاة دبقة .. أسنان منمقة .. عيون بسحرها ضاحكة ..

أتذكر سيدي؟ .. في مثل هذا اليوم منذ عامين قابلتك .. في مثل هذا اليوم اندفعت من الزهراء إلى المريخ قاصدة قلبك..

كان إفْتِتَاننا أمراً خارقاً للعادة .. لم تكن فترة صداقتنا طويلة ولم تكن وثيقة ولكن أعترف بأنه كان لها مذاقها الخاص .. كنت دوماً

اترقب تعليقاتك على كتاباتي .. كم كنت أعشق أسلوبك في التعليق على نصوصي الساخرة .. كنت كلما علقت على نص ساخر لي أرفقت ضحكة مكتوبة .. من فرط سعادتي شعرتها بزهوك بي صارخة ..

أذكر أنه في أول حديث فعلي لنا .. أخبرتني بأنك كنت تتساءل أي امرأة جامحة تستطيع العزف على أوتار الورق هكذا .. وأنك ككل فرسان الشرق بسبب أحد نصوصي الشعرية عن "آدم" قد تساءلت .. أي امرأة تستطيع التفتيش في خبايا عقل آدم كتلك وأي ذكاء أنثوي يخفيه عقلها..

أتعلم .. كنت قبلك وحيدة .. وهكذا كان من حولي يرونني ..

يوم كنت وأمي في لحظة صفاء وثرثرة فسألتها عن ما إذا كانت تعتقد أنه يمكن لي أن أحب فأجابتني بشكل صادم وقاطع "لا .. "

لم تقصد القسوة بل كانت تصف واقعي القاسي حينها فلم يكن لي أصدقاء على كثرة معارفي .. لم تكن لي حياة اجتماعية سوى بين قصائدي وسطور حكاياتي .. ورغم ذلك لم تكن حياتي مزرية .. على العكس فقد كانت حياة مفعمة بالتقدم والنجاح إلا في الجانب العاطفي طبعاً ففي هذا الجانب كانت كلمة "مزرية" لتكون نقطة في بحر ضمن كون فسيح..

بدأنا نتحادث .. بدأ كل منا يشغل حيز كبير من فكر الآخر .. ثم تحول الانجذاب إلى إعجاب مفرط بمجرد أن بدأت

المكالمات الهاتفية ثم جاء قرار اللقاء .. أيا كان ما جذبنا وقتها فلم يكن بقوة إنجذابنا حين التقينا رغم كل ماكان من اعتبارات تعيق قرارنا.

جاء يوم اللقاء .. كان التوتر يملأ الهواء .. كنت أود أن أبدو كحورية .. حتى أنني كدت استعين بكل ما أوتيت من أنوثة وجاذبية عليك ..

ارتديت تنورتي البيضاء تعتليها بلوزة حمراء بربرية .. كحلت عيوني بسحر النساء .. أضرجت شفتي بدماء العشاق .. تعطرت بأريج الأزهار البرية ..

أذكر أنك هاتفتني لتسألني أي الألوان سوف أرتدي وحينما أجبتك باللون الأحمر أعربت لي عن كرهك لهذا اللون وحينها عَقَّبْتُ على كلماتك بثقة المتيقن أنني أعدك بتغيير نظرتك لهذا اللون وأنه عما قريب سيصبح المفضل لديك..

كان ميعادنا في الخامسة والنصف عصراً .. لا أخفيك سراً فقد رفرفت كفراشة عندما سمعت أنك قبل ميعادنا بنصف ساعة قد وصلت .. كان هذا دليلاً جلياً على شوقك ..

بفعل الزحام الصيفي تأخرت عليك قليلاً .. دخلت المقهى وقد كانت عيناي تبحثان عنك في شوق ولهفة .. تمهلت قليلاً .. أشحت بنظري للأعلى .. عندها وجدتك جالساً تنتظرني في هدوء ساحر .. كنت قد سحرتني بعينيك الساحرتين قبل أن تتلاقي عينانا .. وياله من

تلاقٍ للعيون .. شعرت حينها وكأن الكون اشعَّ بهجةً وبياضاً وأن كل من حولنا قد تلاشوا .. توقف الوقت للحيظات عند هذه الالتقاءة .. أذكر أنك انتفضت واقفاً حينها وتَسَمَّرت ناظراً إلي وكأن إعصاراً ضرب كيانك وأطاح بك ..

بعد ثوان عاد الكون إلى حركته .. تهاديت أنا صعوداً لدرجات السلم المؤدي إليك .. وحينما وصلت وجدتك تمد يديك إلي كأمير ساحر أمسكت يدي لتجلسني على المقعد المقابل لك .. جلست في صمت لوهلة تتأملني .. أحمرت وجنتاي خجلاً من نظراتك الملتهبة الثابتة ..

أخذنا نتحادث كثيراً حتى مر الوقت مسرعاً .. حان موعد الرحيل .. كانت نظراتك تفضح سرك .. وكنت أنا سعيدة بذلك .. كدنا نفترق عند باب المقهى إلا أنك أبيت في جنون إلا أن توصلني حتى أركب سيارتي .. كان ذلك درب من الجنون ومغامرة طائشة من كلينا إلا أننا لم نأبه سوى لما أحسسناه..

وصلنا لباب السيارة .. طبعت قبلة رقيقة على يدي .. ودعنا بعضنا بنظرات ألهبها العشق أتعسها الفراق .. كان لقاءاً ساحراً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى ..

توالت لقاءاتنا .. توثقت علاقتنا بشدة .. كنا نتحادث ليل نهار .. كانت الدنيا وكأنه كساها الربيع وبعد شتاء قارس طويل قد أزهرت .

أتعلم حينها شعرت أني امتلكت الدنيا وما فيها .. تلاشت كل أمنياتي وتبدلن بك .. بت أنت أماني وأحلامي .. بات كوني كله يدور حولك .. أذكر أنني على يدك تعلمت الهجاء في العشق .. أتقنت أبجدية العشاق .. شوق الهمسات .. حرارة الأشواق .. معا اقترفنا أروع الحماقات .. تلاشى الكون معك وبك .. وبت أنا السلطانة جارية تحت قدميك .. مولاي كم عشقت في بلاطك الرق..

أذكر أنني في يوم جلست على مقعد كنا قد جلسنا به على شاطيء البحر .. نظرت إلى السماء وأخذت أحادث الله .. كنت أناجيه .. كنت أشكره ، كنت أرجوه .. كنت أسأله .. ربي لكم أتمناه .. ربي إن أخذت مني كل شيء فلا تحرمني إياه .. ربي هبني إياه زوجاً أحبه وأرعاه .. يومها كنت على استعداد للتضحية بأي شيء مقابل أن أقضي ما تبقى من عمري معك .. أن أحمل داخلي طفل من دمك ..

أتعلم مر شخص بحياتي أخبرني أن المشكلة ليست في إنجاب الأطفال بل فيمن ننجبهم منهم .. اقتصرت أحلامي على انجاب طفل منك .. أن أحمل على كفي طفل يحمل دمينا .. طفل نتشاطر به ملامحنا .. وكي أصدقك القول كم تمنيت أن يحمل ملامحك وقسماتك .. عيونك وبسماتك .. تمنيت فقط أن يحمل مني قلبي ليحبك مثل أمه

يا إلهي كم كان الأمر ليكون رائعاً أن أحمل داخلي من يحمل اسمك .

أحلام وأحلام وأحلام كلها تحطمت على صخرة الفراق .. اليوم تعلمت مفاد أنه ليس كل ما يتمناه المرء يناله ..

لا أنكر كنت من السفه أن حاولت نسيانك .. ولكن سرعان ما كانت تجثم فوقي ذكرياتي .. كنت أحمل الذكرى على ظهري أينما ذهبت .. كنت أبتعد عنك ثم في وهلة أعود إليك .. ولا يخفى سراً عنك أنك في جَلْدي وتعذيبي أبدعت ..

بدأ حبي لك بتنازل تلته تنازلات ولم تكن أنت ممن يقدرون تنازلات العشاق .. وعندما تهون التنازلات يتحول العشق إلى امتها ..

بدأ الحب يتحول لإدمان مرضي على سماع صوتك .. على امتهانك .. كنت تشبه في دمي السرطان..

أتعلم أعتقد أنه إن استعملت مصطلح العصور المظلمة في حياتي حينها سيكون هذا أفضل وصف لحبك .. تألمت كثيراً وزاد الامتهان آلامي فأنا سيدة ما اعتادت الذل والحرمان .. كبوت بشدة ولكن الزمن يداوي الآلام ..

لو سألتني حينها هل قصدتي النسيان كنت سأجيبك نعم من كل قلبي وبكل جوارحي ولكن مع الوقت تعلمت أن روعة الشخص في آلامه . فقد زادتني مسحة الحزن بعيني بهاءاً .. وأضفى علي ألمي غموضا وإثارة أسرت من حولي .. حينها وحينها فقط أيقنت أن أفضل انتقام منك هو أن أجعل ذكراك سبية لقلمي .. بت أصلها وقتما ابتغيت وأهجرها وقتما ابتغيت..

بت أنساك وقتما أحب وأتذكرك وقتما أحب .. بت استحضرك وقتما شئت واتجاهلك وقتما شئت .. عدت أنا السلطانة وأنت وذكراك لكتاباتي عبد..

ارتسمت على شفتي بسمة رضا وزهو .. عدت إلى عالم الواقع .. اعتدلت في جلستي .. تناولت فنجان قهوتي .. فتحت الراديو وإذا بها "نجاة الصغيرة" تشدو برائعتها "اسألك الرحيل" .. فقهقهت ضاحكة فأنا امرأة ما عادت تعرف السؤال ولا العويل..

***

(٩)
العيطموس

كم يسحرني تلألؤ النجمات في تلك السماء الحالكة الفسيحة .. يأثرني براح الكون وسحر صحرائنا الأم .. تلك الشاسعة المترامية البعيدة .. كما تذهلني قدرة رجالنا على جعل أكواننا بضآلة الزنازين الضيقة الصغيرة ..

ككل نساء القبيلة حلمت بفارس الأحلام ، كنا نستقي الرومانسية والحب من أبطال الأفلام ومن تعلمن منَّا كن يستقينها أيضاً من أشعار نزار وكتب الروايات المهربة المتخمة بالحب والشوق وأساطير العشاق القديمة ..

كنت من هؤلاء القليلات اللاتي تعلمن وكنت وإحدى صديقاتي الوحيدتين اللتين عملتا بعد تعليمهن ..

لم يكن أبي بذاك الرجل المتفاهم ولكن لحسن حظي أنه لم ينجب سواي .. فقد عَوَّضَ عن عدم إنجابه لولد بأن علَّمَني على خلاف قريناتي من الفتيات ..

يستغرب الكثيرون من موقف أبي حيث أنه لم يتزوج مرة أخرى لإنجاب الولد الذي يتمناه .. فقد اكتفى على عكس كل رجال القبيلة بأمي زوجةً له .. كان موقفه غير مبررٍ لمن حوله فقد كان تعدد الزوجات أمر عادي بل عادة راسخة من عادات الرجال في أعرافنا .. انتقده أهله وراجعته في قراره أكثر من مرة قبيلته ولكنه ظل على رأيه ثابتاً إلا أن حياته كأغلب رجال القبيلة لم تخلو من الهفوات والنزوات ..

لا أذكر أن رأيت أبي يوماً يحدث أمي بكلمة حب واحدة حتى أني لا أذكر أنه داعبها في وقت بكلمة طيبة .. لم يحدث قط أن رأينا منه سوى القسوة المقفرة .. إلا أنه رغم كل ذلك لا تفسير لتشبثه بأمي وعدم زواجه من أخرى سوى أنه أحبها وأحبني على غرارها فخالف الأعراف مرة أخرى في تعليمي ومن بعدها عندما سمح لي بالعمل في مجلس المدينة ..

تستغرب أمي كثيراً عندما أحدثها عن حب أبي السِّري لها .. كما تعجب عندما أحدثها عن نظراته النادرة بحب إلي .. حتى أنها سخريةً تناديني بدرَّة أبيها .. أتَذَكَّر أنه في مرة كنت أعد له القهوة ورأيته ينظر إلي بحنو شديد يخالطه شرود وكأنه يحدث نفسه بأمور تخصني وعندما أفاق من شروده وفطن لتنبهي ماكان منه إلا أن صرخ بي "ايش تريدي ..عدِّي من هنا .. والله مخبلة مثل أمك" .. عندما رويت لأمي ما حدث لم تصدق .. على الأقل لم تصدق حديثي يوماً عن حبه لها إلا أن حديثي دوماً ترك أثراً بشكل ما في نفسها .. كانت كلما تحدثنا ولمحت بعينيها مسحة حزن بادرتني بجملتها الشهيرة "آه منك أنت .. بنت أبوك" وضحكنا معاً .. بدفء قلبينا مدثرتين ..

على تلك الشاكلة مرت أيامنا ... تارة في حزن .. تارة في فرح .. دوماً متقاربتان ..

مرت أيامنا متشابهة حتى أتى ذاك الصباح .. صباح مشرق .. يدب في البيت نشاط مثير .. لليوم وقع غير كل الأيام ..

اليوم أتممت الثالثة والعشرين من عمري .. وتقدم لخطبتي سعد ابن عمي كما هو متفق عليه منذ وضعتني أمي وتم العهد عليه بين أبي وعمي ، لم أرَ سعد منذ ست سنوات تقريباً فقد سافر لإتمام تعليمه في كلية التجارة بالإسكندرية وبالطبع تلكأ في الدراسة قليلاً وها هو الآن مسئول عن تجارة القبيلة ..

لا أذكر عن سعد الكثير سوى أيام طفولتنا .. كان معتداً بنفسه .. دائم التباهي بقوته ، كما أذكر نظراته إلي المتسمة بالمكر الوفير ..

عاد سعد .. تقدم لخطبتي .. وافق أبي وحددوا موعد الزواج .. نظراً لخلفيتي الثقافية طلبت من أمي أن يأذن لي أبي برؤيته والجلوس معه فما كان منها إلا أن بُهِتَت ونهرتني قائلة "مكلوبة أنت .. ما تدري ايش تطلبين .. والله التعليم جنك .. لو بتصري بدك تسأليه لحالك" ..

وعلى جموحي وجرأتي لم أمتلك من الجسارة ما يمكنني من الوقوف أمام أبي .. لم أتمكن من سؤاله أو الإفصاح عن رغبتي ..

مضت الأيام سريعاً .. كنت أجتهد في إيهام قلبي بحبه .. كنت أنسج خيالاتي من فتات ذاكرتي عنه.. كنت أثمل من هزج أحلامي .. أفرطت على نفسي حتى غاب واقعي ولم أبالِ ..

اليوم حنتي .. وما أدراكم ما الحنة في دياري .. دفوف وغناء .. رقص ورسوم وألوان .. تتجمل العروس وتتعطر لتعجب الرجَّالْ .. ثوب أحمر مزركش صارخ النقوش والألوان .. برقع يغطي وجهي إلا من عينين بكحليهما يذبحان .. رسومات بسود الحناء تزين كفّي وجسدي وقدماي .. باطن يدين وقدمين بحمرة الحناء مضرجتان وكأنهما بدماء العشاق يدميان .. كرادين تزين رقبتي .. أساور تلف يدي .. خلاخيل تعلن عن قدوم فرسة سجال .. عطر وطيب يهلك ممالك ويقيم سلطنات من خيال .. كنت في خيمة النساء استمع لأغانيهن .. يصل لمسامعنا هتاف وأغان الرجال وكنت أتخيله على صهوة جواده فارس خيَّال ..

انقضى العرس .. جلست على السرير أضم ساقي إلى صدري في انتظاره .. تلف سريري أستار حريرية شفافة حمراء ..

أسمع وقع قدميه .. تتسارع دقات قلبي .. تلتهب أنفاسي .. يعتصرني الخوف ويقتلني شوقي إليه .. يزيح الأستار حولي .. أتبدى قمر لعينيه .. يقف أمام سحري مصعوقاً .. ينخلع قلبي من اشتهاء عينيه .. يجلس جواري .. يمد يده ليزيح عني حجابي .. ما أن يتكشف وجهي حتى يهم باجتذابي بقوة من دبت الفورة في عروقه إلى ذراعيه .. أحاول التملص منه .. يهتاج غضباً .. أحاول أن أشرح له خجلي وخوفي .. أطلب منه التمهل لدقيقة بعد .. أحاول وأحاول .. لا يستمع .. لا

يتمهل .. يلطمني .. أصمت من هول الصدمة .. يدفعني بقوة وينكب عليْ .. لم أشعر بشيء .. انفصلت عن العالم .. بت كالدمية بين يديه .. كان يخترقني ينهشني ولا حول لي ولا قوة إلا من دموع بللت وجنتي .. وفجأة وبشكل تام غبت عن الوعي ..

صحوت لأجدني عارية تماماً إلا من حسرة استباحتني .. يلف خصري ذراعه .. يجثم على صدري كفه .. لم تكن ليلة عرس .. كانت تأبين نفس ..

مرت أيامي فاترة .. استبدت بي شهواته .. انمحت قسماتي .. ضلَّت روحي ما بين غانية وخادمة ..

مرَّ على زواجي شهر .. مر علي كأنه دهر .. اليوم أبلغني سعد بأننا سوف نشد الترحال إلى الإسكندرية حيث تجارتنا وحالنا .. لأول مرة تخالط نفسي السعادة منذ ذاك اليوم ..

أعلم أن سعادتي هي محض خيالات وأوهام ساذجة فليال سعد بالإسكندرية لن تختلف عن تلك الليال الموحشة الباردة .. وخصال سعد لن تغدو بعد التوحش حميمية دافئة ..

وها هي الإسكندرية .. عروس صبية كما تناقلتها الأغنيات واستفاضت في وصفها الحكايات .. آه يا عروس البحر .. كم حلمت أن آتيك بأشواق الصحراء الحميَّة وأصب بكِ فورة الأنوثة البدوية .. تصمت نفسي قليلاً وكأنها تصحو من حلم .. أنظر لسعد فأجد نفسي

تستأنف قولها ساخرة "و ها أنا آتيك بشر البلية .. عذراً أيتها الإسكندرية".. حقاً شر البلية ما يضحك !!

مكثنا بالإسكندرية .. رزقنا الله بطفل بات من الدنيا كل ما لدي .. لم تختلف ليال الإسكندرية مع سعد عنها في دياري إلا أنها ازدادت وحشة وتجاهل ..

يخرج للعمل باكراً .. يعود للبيت متأخراً .. يمارس على جسدي الضعيف فحولته الكاذبة .. يتركني بأقل مما لدي .. إلا أنه رغم كل ذلك أبى سعد أن يترك لي حتى فتات أحلامي به .. لم يبتدع بدعة جديدة فقط تزوج علي راقصة ..

ما أحط نفوسكم أيها الرجال على وفرة النفيس تشتهي الغيَّ طالما النسوة على أشكالها متوفرة .. استبدت بي غيرتي وحمية البداوة القاتلة .. ذهبت لأرى ما بدى منها وزانها عني ..

دققت عليها مسكنها .. فتحت الباب وإذا بها مجرد امرأة .. ما زاد عليها سوى أنها ساقطة ..

عدت إلى بيتي .. أغلقت علي بابي .. ضممت طفلي إلي .. باتت ليالي سعد بيني وبينها ممزقة مهترأة بالية ..

في كل ليلة أتجمل له بخيالاتي .. أتعطر بأوهامي فأغدو ساحرة .. في كل ليلة اتبارى في فتنته عله يترك تلك العاهرة .. وفي كل ليلة يخترق سعد حصوني ويتركها لليأس مخربة خاوية باردة .. لا

أعلم هل تحيا نفسي على ما تبقى من فتات أحلامها أم هي سذاجة النسوة في بلادنا ..

في دياري تفنى حيوات النساء تحت أقدام الرجال .. ما أغلبهن النساء في أعرافنا وما أغبى الرجال جملة وتفصيلاً في دیارنا .. يتركون القساوة للزوجات ويقصرون الدلع والمداعبات على الغانيات والراقصات .. عسى الله يرأف بأحوالنا ..

***

(١٠)
أقصوصات عشقية

الأقصوصة الأولى
رفع الستار

رفع الستار .. أضواء تغمرني .. جمهور يملأ المكان .. اتلألأ .. اتألق .. بوجهي تشع الألوان.. قلب يخفق بصوت الرعد .. أنفاس يقتلها البرد .. دموع تتوارى قدر الإمكان.. أتراقص .. أتهاوى .. عيون تتقاذفني بين الأركان..

صاعقة تهبط .. تشق السماء .. وجوه تتوقف عن الإيماء .. لوهلة يسود الموت المكان..

أسقط .. تخفت الأضواء .. تتعالى الشهقات..

صمت يسمعك صوت الأنفاس .. ذهول يتوج الإصغاء ..

قرع مفاجيء .. ضربة رعد .. أركض نحو السلالم .. أهوي من أعالي الكون..

أيادٍ ترتفع كي تدركني ويداك لم تظهر بعد..

عيوني تمسح الأجواء .. قتلت العيون بحثاً .. تأرجحت ألماً ..

نظرة أبيَّة إلى السماء .. شمسي لم تشرق بعد ..

عودة إلى عيون البشر .. آذاني تمقت الإطراء .. عيوني تبغض نظرات الأهواء ..

هبوط آخر يكسر القلب .. لم يحن بعد موعد الطيران..

نظرة يكسرها الهجران .. ظلمة تملأ المكان إلا من بؤرة ضوء..

عمَّت الظلمة إلا من بؤرة تشعلني ..

أغمضت عيني لوهلة .. تعالت أصوات الكمان..

تصفيق حاد .. أسدلت الأستار .. أرداني الخذلان..

***

الأقصوصة الثانية
حلَّ النســـيان

تسقط سماعة الهاتف .. تُحْدِثُ ضجيجاً حاداً.. ظلمة مفاجأة تعم المكان .. انكب سقوطاً على الأرض .. بؤرة ضوء تعرِّيني.. إجهاش في البكاء .. بكاء يلهم بكاء .. بكاء العالم بات لا يكفي القلب..

أستشعر غصة في حلقي .. يد الغدر تعتصر قلبي.. آلام الكون تتكالب علي .. بكاء يلهم بكاء وكل يذهب هباء..

صمت قاتل .. نبوع الدمع تجف .. عيناي مسمرة إلى مساحة من الأرض لا تميز بها شيئاً قط..

تسمر طويل .. كجمود مفاجيء من اللهث والركض..

عطب يضرب الأركان .. برد يلف المكان .. ومضات من برق ورعد..

ومضات تضيء الذاكرة .. ومضات تعري النفس تَصقِلُ الآلام..

مرَّ الوقت .. عيناي بدأتا تعتادان ظلمة المكان .. نسيت الدموع في عيون تحجَّرت بكاءً في أزمان أثقلها الحرمان .. هاهي تخرج مني .. تنفضني عني..

كانت تبعث من داخلي .. آلام تشبه المخاض ..

بصيص من الضوء يتسرب إلى المكان..

تنساق إلى الضوء ككائن نوراني انبعث من شراسة الموت..

باب ينفتح من الغيب .. حضورها أضاء الغابة..

تجمعت تشهد مولدها الكائنات..

آلهة يونانية .. أسطورة عربية .. تضادات عنفوانية انبعثت من رماد خلَّفْتَهُ فيَّ..

رقصاً أعلن العصيان على إقامتك الجبرية .. أتمايل كبرياءً..

أرقص على جمر الحرائق بقلبك تلاعباً بالأذهان..

عبرت الفصول تمرداً على قهرك .. عصفت بالخريف .. ألهبت الشتاء .. حوَّلت الربيع نيراناً .. أحلت الصيف بركاناً..

نضج الفراق .. بل نضجنا سوياً..

حلَّ النسيان .. حلَّ النسيان .. حلَّ النسيان..

* * *

الأقصوصة الثالثة
عبق الكبريـــاء

لم أستطع النوم تلك الليلة .. غادر مدينتي آخر الأشباح ..

ترك داخلي خواءً أم كان هو خوائي .. ترك حباً أم جرحاً..

هل كان ملاذي أم كان هوة سوداء كادت تبتلع العمر ..

كتبت كثيراً عن أول شعاع للشمس ولكن عذراً لم أشهده قط ..

في تلك الليلة سهرت كثيراً .. وجدت نفسي لأول مرة أنتظر لأشاهد الصباح ولكن تلك المرة من دون قصص أو شعر ..

تسللت أشعة الصباح الأولى إلي .. أنارت ملامحي شيئاً فشيئاً .. رمت بوشاحها على قسماتي .. عرضاً أضاءت قلبي ..

وجدت نفسي اتساءل لمن تحملين يا عيني كل هذا الحب؟ .. هل يوماً ستجدينه أم ما عاد ممكناً قط ..

لمن تهدي يا قلبي دقاتك .. لمن تسافر سراً وجهراً ..

من سيهديني يوماً أزهاراً تحادثني..

زهرة حمراء تشعلني .. بيضاء تهادنني .. صفراء تغار علي تشاكسني..

لمن تراك تهمس يا وجدي .. من تناجي مع ذاك الفجر .. من تراه فارسي أم تراه غادر للتو ..

هل سيسكنَّا يوماً بشر .. هل سيطأ أعتابنا أناس .. أم فقط سنظل مدن تسكنها أشباح .. وبهواً يودي إلى بهو ..

عم الصمت .. نسمات تتهافت إلي .. أغمضت للحظة عيني ..

سؤال يتبادر إلى ذهني .. هل نناضل؟ .. هل نستمر؟ ..

سؤال أهم .. هل يمنعني كبريائي أم حلمي من الموت؟ ..

كثير من الأحلام تموت ..

قلة من المدن يؤسسها عبق الكبرياء .. يمنعها من الانزواء رغم القهر..

ترميني الشمس بشعاع يكسر عيني وكأنها تداعب كبريائي ..

أعتقد أننا سنستمر .. كبرياءً سنستمر ..

***

الأقصوصة الرابعة
وجه القمــر

من دونك عيوني فارغة لا يملأها إنسان .. من دونك أحيا ما بين عالمين أحدهما حلمي معك والآخر من نسج الأحزان .

تتساءل كيف أعشقك؟! .. كيف يستمر حلمي ليلاً نهاراً بك؟! كيف بقلبي دوماً أحفظك؟! .. كيف وأنا حتى لا أعرفك؟!..

هل ما أراه على وجهك نظرة عجب؟! .. يجيبك وجهي ببسمة مابين الإقرار والعتب..

في انتظارك أنا منذ نعومة أظافري .. منذ كنت صغيرة يراودني حلمي بك .. في سن مبكرة أمسكت بقلمي وكتبت أسطراً طفولية عنك اسميتها "فارس أحلامي.. "

أسطر خطتها طفولة علمت أنها يوماً ستتكشف أنوثة بين يديك .. ثلاثة عقود إلا ثلاثة أعوام ومازلت أحترف لأجلك الأحلام .. سبعة وعشرون عاماً وأنا أتعلم لأجلك كيف أتقن الصمت وكيف يكون مع السادة الكلام ..

عيوني تلتمسك سراً في وجه القمر .. تطلبك جهراً يا شمساً لا تعرف للأفول قدر ..

رويداً يا أنفاسي احترقي شيئاً فشيئاً .. ويا دقاتي احترفي الطبول حتى يحين الوقت ..

على دقات قلبي أخطو صباحاً إلى البحر .. يرونني دوماً وحيدة .. لا يعلمون أنني فرغت من الكل حتى امتلأت بك .. أجلس فارغة إلا من أشواقي لك .. أغمض عيني مسافرةً إليك .. تلاطفني النسمات .. تحمل صوتك إلي أنغام تهب قلبي الحياة ..

أنصت يا قلبي هاهي الأمواج تروي عن فارسي الحكايات .. تمشَّى ليلاً على البحر .. بحسنه أشادت الرمال .. شمر عن كاحليه .. أخبرتني الأمواج أنها لأجلي قبلت قدميه .. تبسمت بمسحة حزن عرفت طريقها دوماً إلي .. من عيوني دمعة شوق ترقرقت .. داعبني البحر بموجة رمت بقطراتها إلي قائلاً لا تقلقي بثثت أشواقك إليه .. يا بنيتي ترفقي لم يحن الموعد بعد .. لم يحن الموعد بعد..

عودة مرة أخرى إلى الواقع .. في حزنٍ .. في حلمٍ .. حتى يحين الوقت..

***

الأقصوصة الخامسة
ذاكرة قيد الغرق

كنت أقف على شاطيء البحر .. على تلك المساحة المبللة من الرمال .. أخذت أمعن النظر في تلك القدرة الخارقة للأمواج على التغيير .. كلما تهافتت الأمواج تلامس قدمي .. كلما انسحبت معلنةً بقوة وضراوة عن منطقها في تغيير ذاكرة الرمال .. منطقها في تسيير تلك الحبيبات الذهبية ما بين الفوضى والانتظام .. مابين القبح والجمال ..

فجأة يخطر ببالي أمراً .. كيف لم ألتفت لتلك القدرة الخارقة للأمواج من قبل ؟! .. هل هو خاضع في الواقع للتجريب ؟..
في سبيل الإثبات .. المحاولة هي الحل الوحيد ..

هرولت عائدةً إلى المنزل .. لملمت من الهوى تلك اللحظات .. أقساها وأرفقها .. أبسطها وأعمقها .. تلك اللحظات الباسمات والدامعات ..

جمعت ابتساماتي .. أعتاها وأكثرها عهراً والأكثر براءةً وطهراً .. أصدقها وأكذبها ..

حزمت دمعاتي .. أحكمت قيد آهاتي وسكراتي .. نبشت قبور قلبي الجماعية .. أخرجت جثث موتاي وحاجياتي .. رفاة واريتها على مدار السنين .. وضعتهن جميعاً في ذاكرة ماعادت بالإمكان ..

سارعت إلى الشاطيء مستنجدةً بالقدرة السحرية للأمواج على تغيير الأحوال ..

ألقيت بهن جميعاً .. تلقفتهن الأمواج كما تتقاتل على الفريسة الأسود .. ذاكرة بأكملها قيد الغرق ..

وقفت أشاهد ملامحي تختفي .. أيقنت حينها أنه يمكن أحياناً لكتاب حياتنا كاملاً أن ينمحي ..

المؤلم في الأمر .. أن التجريب لا يخضع للقوانين كما هو الحال في الفيزياء أو الكيمياء .. إذن في التجريب ليس هناك ضوابط أو مسلمات..

في الحياة يحتوي التجريب على قدرٍ عالٍ من المخاطرة وقدرٍ أعلى من احتمال تحوُّل نجاح تجربتك إلى أعتى الخيبات ..

حينها انتابني شعور مؤقت وأخيراً بالارتياح من ذاكرة الأشياء .. ولكن كان للتجربة نتيجة أوقع .. مفردة جديدة "الخواء" ..

من المثير للسخرية أننا أحياناً نتخلص من أشيائنا بغيَّة إفساح المجال لأنفسنا قليلاً لتتنفس الصعداء وإذ بنا نفسح المجال لحضور أقوى .. مقبرة أكبر .. غربة أصدق .. فاجعة أعمق بالخواء ..

وتعزيزاً لقهقهات السخرية فإن أقوى البكاء هو ذاك الذي يأتي من فرط الضحك حيث نعود لنفس نقطة الإنطلاق .. فجائعنا .. خسائرنا .. خردوات قلوبنا .. ذكرياتنا .. أماكنَّا .. جل حصيلة تجاربنا

لا مبرر لها سوى أنها أقدار الله .. ومرة أخرى تعلمنا الحياة درساً لا ينسى بالآلآم .. أنه ليس بالإمكان أفضل مما كان .. وأن كل شيء يحدث بقدر ولحكمة لا يعلمها إلاه وكنتيجة حتمية لا يمكن أن يحيا الإنسان دون ماضٍ أو أحلام ..

***

الفهرس

أنثى مع وقف التّنفيذ

أعتقد أنني كنت دوماً كائناً حبرياً كلما انسكبت على ورق اتخذت شكلاً جديداً .. معالم جديدة .. قسمات شديدة التفاصيل .. أحياناً متآلفة .. أحياناً متمردة .. كثيراً فريدة و دوماً مناضلة عنيدة ..
في كل مرة يلامس فيها جسدي ورقة تكون لي قضية جديدة .. و مع كل قضية تتشكل خارطة أنوثتي و رويداً رويداً تزداد الصورة وضوحاً و ازداد معها بساطة و تعقيداً .. تستطيعون القول بأني دوماً كنت أنثى السهل الممتنع ..
لكل أنثى تفاصيلها الخاصة .. خارطتها التي لا تشبه سواها .. حتى أنه لكل أنثى نشرتها المزاجية الصادرة عن محض هواها ..
تمر حياة الأنثى بالفصول الأربعة .. تجد الأمل فيها ربيعاً يجعلها تنبض بالحياة .. تجد العشق فيها صيفاً يلهب الحس لمنتهاه .. أما عن الخريف فتجده في الليالي العاصفة .. تلك الليالي الباردة فاترة الحياة .. و كثيراً ما تجد الوحدة فيها شتاءً يحيي ليله البرق و يذيبه خوفاً الرعد و تضربه بغتة الكوارث و الأعاصير..
دوماً كنت أنثى الفصـــول الأربعـــة .. في طياتي تجد الشيء و النقيـــض .. أنثى الحـــد الأقصى في كل السمـــات ..
في تلك المجمـــوعة كنت محض حبـــر و ورق .. محض أدب و انسكاب ..

تصميم الغلاف كريم أدم